الدوسري

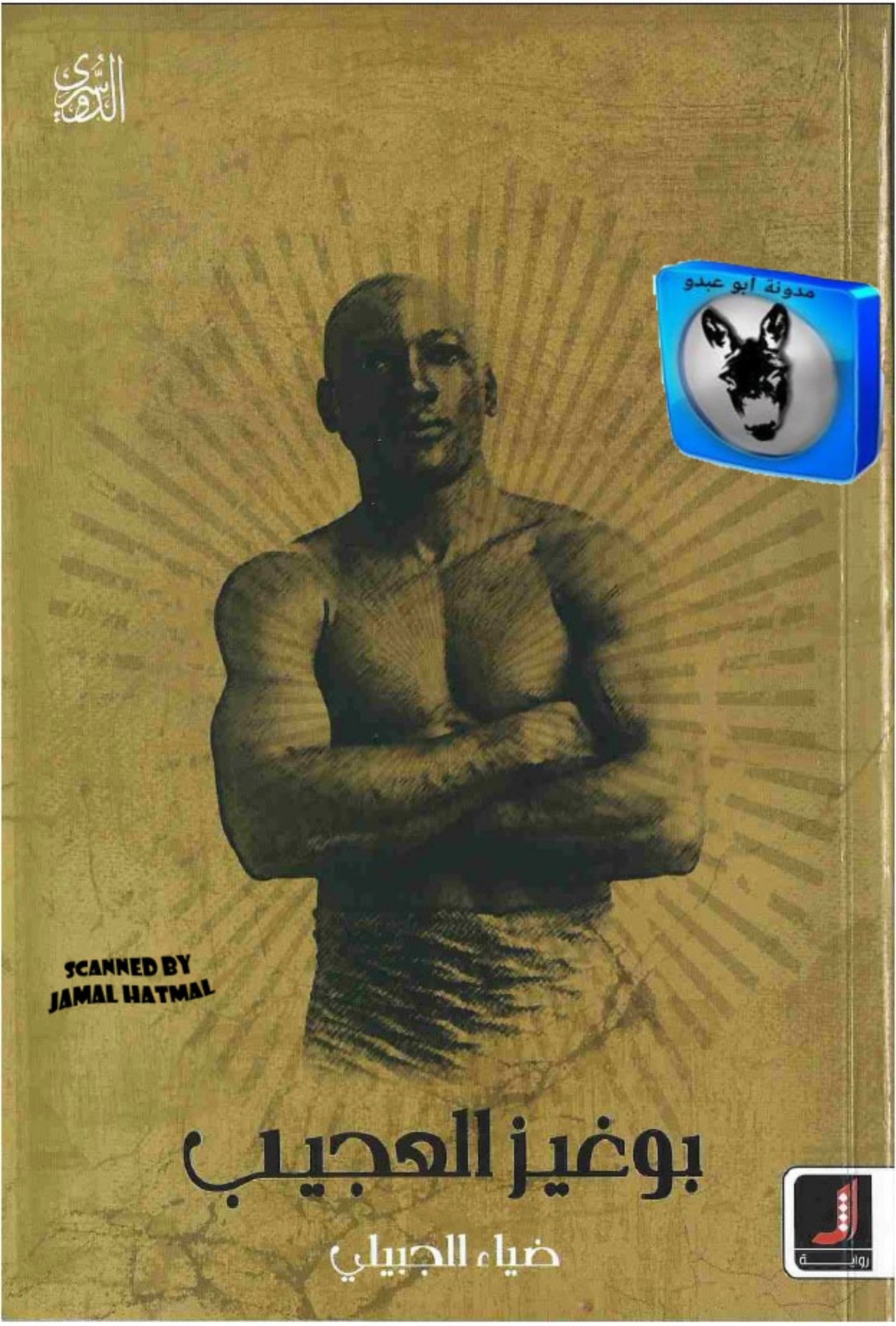

مدونة ابو عبدو

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

بوغيز العجيب

ضياء الجبيلي

رواية

بوغيز العجيب

بوغيز العجيب

ضياء الجبيلي

رواية

2011

بوغيز العجيب – رواية

ضياء الجبيلي

الطبعة الأولى 2011

ISBN 978-99958-3-014-4

رقم الإيداع بإدارة المكتبات العامة – مملكة البحرين

د.ع 9015 / 2011م

جميع الحقوق محفوظة

منشورات مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع

مملكة البحرين – ص.ب: ١٨٣٦١

هاتف: ٠٠٩٧٣١٧٥٦٤٠٣٠ – فاكس: ٠٠٩٧٣١٧٥٦٤٠٦٠

الموقع على الشبكة: www.aldosariculture.com

البريد الالكتروني: info@aldosariculture.com

Al Dosari for Culture and Creativity

Kingdom of Bahrain - P.O.Box 18361

Tel: 0097317564030 - Fax 0097317564060

Website: www.aldosariculture.com

Email: info@aldosariculture.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع**

الإخراج الفنيّ والتصميم: محمد الإسكافي.

لم أكتشف أن المخطوطة القديمة التي دفعها لي المحاضر «فرانسوا ديروش» مدير الدراسات في المدرسة العملية للدراسات العالية في باريس، ومؤلف كتاب «المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي» هي رواية، كتبها مؤلف مجهول بلغة عربية تقترب في الكثير من مفرداتها من اللهجة البصرية العامية، وليس كما ظننت في البداية من أنها مكتوبة بالانكليزية وتعود إلى أحد السياح أو الرحالة الأوربيون الذين كانوا يجوبون بلدان الشرق الأوسط في القرون الأخيرة. ولعلّ أكثر ما أدهشني وجعلني متحمساً للعمل فيها بطريقة حديثة هو أن أحداثها تجري في مدينة البصرة كما أخبرني بذلك الأستاذ «ديروش» وقد طبطب على كتفي مشجعاً، لعلمه بأنها مدينتي. فيما قطب أحد المشتركين من باكستان حاجبيه متشائماً، وهو يتصفح المخطوطة التي دُفعت له، كذلك الشاب التونسي الذي يجلس إلى جانبي فقد بدا متململاً بعض الشيء.

الشيء نفسه بان على طالب مصري متخرج من أكسفورد، وسيدة تركية وبعض المشتركين العرب والمسلمين من حملة الجنسية الإسبانية والفرنسية والأمريكية والسويدية. بعضهم بان على وجهه الضجر من هذه المهمة المعقدة، فيما راح البعض الآخر يتصفح المخطوطات مبدياً رغبته بالاطلاع فقط دون الاهتمام بدراستها، وقلما وجدت من ردود الأفعال تلك ما هو إيجابي، وهو ما لاحظته على طالب سعودي وآخر سوداني يحمل الجنسية البريطانية.

وتُعد هذه المخطوطات من مقتنيات مكتبة جامعة كمبردج العريقة، اختارها الأستاذ «ديروش» خصيصاً لدراستها والتعامل معها عن قرب، ضمن الجلسات اليومية التفحصية والتطبيقية، من قبل طلاب التاريخ المتخرّجين، علاوة على الباحثين والمختصين، المشتركين في ورشة العمل السنوية في علم المخطوطات التي انعقدت في كلية الدراسات الأسيوية والشرق أوسطية ومكتبة جامعة كمبردج بالتعاون مع هيئة المخطوطات الإسلامية.

استمرّ برنامج الورشة خمسة أيام، قدّم فيها الأستاذ «ديروش» محاضرات قيمة عن علم المخطوطات الإسلامية، مركزاً في الوقت نفسه على مقارنة أساليب تحديد الأماكن والتواريخ الخاصة بتلك المخطوطات. فضلاً عن الاهتمام بالجوانب التقنية لمواد الكتابة وأهميتها التصنيفية، وعلى اختلاف مكونات صناعة المخطوط، ماراً بمراحله المختلفة كالتسطير والرزم وغيرها.

لقد سهّل الأستاذ «ديروش» عليَّ المهمة عندما منحني فرصة ثمينة لدراسة مخطوط قديم عائد إلى تاريخ مدينتي، الأمر الذي زاد من حماسي ورغبتي في إنجاز العمل، فقررت في البداية قراءته والتأمل في جوانبه قبل الشروع بدراسة شكل الصفحات والخطوط، وتبيان مميزات المخطوط، ثم العمل على تأريخه. لكنني ما أن اطلعت على ذلك المخطوط القديم جداً، حتى امتدّ طموحي إلى أبعد مما كان السيد «فرانسوا ديروش» يرغب في إنجازه، إذ رحت أفكر في إمكانية أن أعمل على التحقيق في المخطوط بطريقة معاصرة بعد انتهاء الورشة.

في ذلك اليوم سُمح لنا باستعارة المخطوطات، فحملت معي مخطوطي القديم إلى غرفتي التي استأجرتها في «معهد كلير» التذكاري بجوار مكتبة جامعة كيمبردج، على مسافة ليست بعيدة عن وسط المدينة، وكلية الدراسات الآسيوية والشرق أوسطية. في بادئ الأمر وضعتها على المنضدة الخشبية التي انتشرت عليها الكتب والمصادر التاريخية بشكل فوضوي، لكنني عدت بعد دقائق لأودعها في دولاب خشبي قديم، عندئذ شعرت وكأني أودع شيئاً ثميناً كأن يكون كنزاً حقيقياً يختلف عن تلك الأشياء التي كلما تقدم الزمن فقدت أهميتها وقل ثمنها في نظري قبل أن أكتشف حجم المبالغة التي كنت أنظر من خلالها إلى تلك الأشياء حال العثور عليها.

إلا أن شيئاً ما بدا غامضاً وسحرياً، جعلني أفكر بعدم إرجاع هذه المخطوطة إلى المكتبة أو ربما الهرب بها إلى مكان بعيد. ثم سرعان ما

اكتشفت معنى أن أفكر على هذا النحو الذي يشي بسذاجتي التي لا يخفى أمرها عندما أخلو بنفسي، فعزفت عن التفكير بهذا الأمر حتى تمكنت أخيراً من انتزاع نفسي من هوة كبيرة كنت قد افترضت وقوعها بيني وبين الأستاذ «فرانسوا ديروش» اللطيف والظريف في معاملتي، فيما لو قررت التصرف بشكل يجعلني أفقد احترامي في الورشة.

مساءاً، أخرجت المخطوطة ووضعتها على المنضدة مجدداً، كانت قديمة جداً وأوراقها صفراء بائدة. وبالرغم من ذلك بدت مغرية كتحفة نادرة، تحفز المرء على اقتنائها، فحرصت على التعامل معها برفق وبطريقة عملية تحفظ لها أصالتها وتبقيها على ما هي عليه بقية الحياة، فقد كانت مجلّدة بعناية ومختومة باسم مكتبة الجامعة.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أقرأ فيها أحد الكتب القديمة، فطالما كنت مولعاً بالمخطوطات، وسبق لي الاطلاع على الكثير منها عندما كنت في العراق، سيما في مكتبة باشا اعيان العباسي، وكانت أغلبها من النسخ الأصلية، المحققة من قبل الأساتذة الأكاديميين والمحققين المهرة. لذا لم تكن المهمة بتلك السهولة التي تصورت أني سألاقيها وأنا أبحث في هذه التحفة المدونة.

إن لها رائحة يتنشقها المرء بإحساسه، أو هي روح حية تسكن كتاباً سحرياً يروي قصة عجيبة من قصص ألف ليلة وليلة البصرية. هذه الروح، إنها تشبه روح المكان الهائمة في ذواتنا حال رؤيتنا بناء قديماً أو قراءتنا لقصة تروي عن المكان الذي نفتقده، فيما لا زالت روحه

تلك تتلبسنا دون أن تضمحل هي الأخرى بعد زوال المكان القديم الذي صارت تملأ أرضه وفضاءه أعمدة الكونكريت القاسية.

فتحت المخطوطة ثم أشحت بوجهي جانباً، كأني بذلك أردت تلافي اللحظة الأكثر ذهولاً وأنا أنظر إلى خطّ المؤلف المجهول، قبل أن أتصور وجهه والمكان الذي دون فيه كتابه وارتعاشة يده على الورق بينما هو عاكف على الكتابة. ربما كان سائحاً أجنبياً تعلم العربية فأراد أن يكتب قصته بلغة القوم الذين حلّ بينهم، أو هو تاجراً يهودياً أو أرمنياً أو ربما كان شيخاً من المحدثين أو رحالة أو عبداً مخصياً من الأحباش أو الزنوج، أو ربما يكون جندياً انكشارياً من عصر المماليك أو صيرفياً تركياً أو جندياً ألبانياً من «الاوند» أو مجوسياً أو تبشيرياً أو أحد القناصل الأوربيين.

أزحت تساؤلاتي جانباً ونظرت إلى الصفحة الأولى من المخطوطة، ثمة كتابة شُطب عليها إلا أنني تمكنت من قراءتها أخيراً وقد جاءت على النحو التالي: «ثورة الزنج» فاستغربت في البداية أن يختار المؤلف مثل هذا العنوان، في حين لم يسعني التحقق من أمرٍ غاية في الأهمية، لكني كنت متأكداً منه وهو أن ثورة الزنج حدثت في القرن التاسع الميلادي وليس كما هو ظاهر من النبذة التي أعطاني إياها السيد «ديروش» الذي أخبرني بأنها قصة طريفة تجري أحداثها أواخر القرن التاسع عشر. وعلاوة على ذلك كنت متأكداً من أن ثورة مماثلة لم تحصل بعد هذا التاريخ، عندما قاد «علي بن محمد» الزنوج والعبيد بمختلف

أعراقهم وألوانهم إلى ثورة عارمة اكتسحت البصرة في العهد العباسي السحيق.

راودتني فكرة أن مؤلفنا المجهول هذا ربما وظف موضوعة الزنج وثورتهم فألبسها حلة جديدة وراح يدون أحداثها بلغة عصره. وبخلافه يكون الأستاذ «ديروش» مخطئاً حينما قال أنها عبارة عن قصة طريفة. وبالتالي فأن ما مدون فيها ليس سوى أحداثاً تاريخية تروي عن تلك الثورة. وأن مؤلفنا لا يعدو عن كونه مؤرّخاً قضى وقته في توظيف موضوعة مستهلكة طالما اجتهد المؤرخون في نقلها والكتابة عنها، وكان آخرها ما قرأته في كتاب «فيصل السامر» الذي يحمل العنوان نفسه.

أعرف أني سبقت الأحداث وقتها، إذ لم يكن ثمة تفسير لما رأيته في تلك الصفحة من المخطوطة سوى الذي فكرت به حينها، فتساءلت عن السبب الذي جعل المؤلف يشطب على العنوان، لكني ما أن قلبت الصفحة وانتقلت إلى الثانية حتى فوجئت بوجود عبارة بدت كأنها عنوان هي الأخرى، ففهمت أن المؤلف استبدل العنوان المشطوب بآخر أطول منه جاء كما يلي: «المقامة الزنجية في أحوال بلدة البصرية» فعرفت بأني أسأت التقدير على الرغم من وجود ما يوحي بان ثمة زنوج في المخطوطة، لكن ذلك لا يعني البناء على نفس الفرضية التي تقول أنه كتاب يشرح ظروف وأحداث وملابسات ثورة الزنج في البصرة.

يبدو أني كنت متعجلاً في الحكم على هذه المخطوطة منذ البداية، فقررت التأني في قراءة الصفحات التالية حتى أكون على بينة من الأمر، وهو الشيء الوحيد الذي كان ينقصني حينذاك. فإضافة إلى الحماس وحب الاطلاع على صفحة مجهولة من تاريخ مدينتي كان عليّ التروي في عملي والبحث عما يجلب الفائدة في الكشف والتحري اللذان يرافقان قراءتي لهذه المخطوطة الغامضة، أو هكذا بدت لي عندما بدأت أقلب صفحاتها الصفر ذات الحواشي المتآكلة. عندئذ تبين لي أن المستر «ديروش» لم يكن مخطئاً حين وصفها بأنها قصة، وهو الشيء الواضح على الصفحات الأولى التي قرأتها بصعوبة وكان عليّ أن أكرر قراءتها مرات عديدة لكي أفهمها كونها مكتوبة بتلك اللغة التي تمتزج فيها الفصحى بالمفردات العامية، لكني حتى ذلك الحين لم أعرف فيما إذا كانت هذه القصة طريفة حقاً كما وصفها أستاذ المخطوطات.

انتهت الورشة، وحصلت على شهادة تقديرية عن ورقة قدمتها إلى الأستاذ «فرانسو ديروش» معنية بالخطوط والشكل وأهم ما يميز المخطوط الذي أُعيد إلى مكتبة الجامعة. في اليوم التالي، اقتفيت أثره في تلك المكتبة، حتى أمكنني ذلك من العثور عليه مجدداً، فرحت أطالعه باهتمام، باذلاً المزيد من الجهد والساعات التي أقضيها في المكتبة يومياً، من أجل قراءة المحتوى بدقة ومن ثم العمل على تحقيقه.

في البداية كان عليَّ معرفة إن كان المخطوط قد نُشر سابقاً، فضلاً عن حاجتي الماسة إلى جمع نسخ هذا الكتاب إن وجدت، لكي

يتسنى لي دراستها والوقوف على ما فيها من تباين في الخطّ والعصر الذي كُتبت فيه، ومن ثم توثيق هذه النسخ بغية التعرف على تباينها واختلافها، ونهج كلّ ناسخ أو مقدار كفايته العلمية، وأيضاً التعرف على مقدار ضبطه في الأداء وما يشوبه من عيوب، وربما أصل في النهاية إلى معرفة مؤلف الكتاب المجهول.

وبالتالي وجب عليَّ الرجوع إلى المصادر والببلوغرافيات المتوفرة، وقد ساعدني ذلك كثيراً، فضلاً عن تخصصي في هذا المجال، وفي الحصول على نتيجة مهمة، وهي اكتشافي أن هذا المخطوط ربما نشر سابقاً، إذ عثرت في مكتبة تراثية قديمة على نسخة ثانية بخطّ النسّاخ، وكانت أوضح من الأولى بكثير، وأكثر ما أدهشني فيها أنها حوت اسم المؤلف والمُهدى إليه.

حدث ذلك في لندن بعد أن يئست من الظفر بنسخة ثانية، واعتبرت أن هذا الكتاب مفقود أو في الأقل انه لم يُنسخ أبداً، وأن النسخة التي كانت بحوزتي هي النسخة الأم أو ربما الوحيدة، التي كُتبت بخطّ المؤلف، إذ لم أجد لها أثراً أو نسخة ثانية، حتى عندما بحثت في كتاب «تاريخ التراث العربي» لـ«فؤاد سزكين» والفهارس والموسوعات المعتمدة مثل فهرس معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وفهارس المخطوطات العربية والعثمانية القديمة وفهارس المكتبات المعتبرة في اسطنبول ودمشق وغيرها، علاوة على استشارة عدد من المتخصصين في هذا المجال ومجموعة من المؤرخين والمحققين المعتمدين.

في نسخة الكتاب الجديدة وجدت اسم «القصة خون» الذي ألّف الحكاية: «هداية بهرام أفندي» يبدو اسماً فنياً أكثر منه حقيقياً، وربما كتب قصته تلك – التي أرّخها هجرياً وبتكليف من الوالي العثماني «سليمان نظيف بك» الذي دُوِّن اسمه أسفل الصفحة الأولى، وهي قطعة نثرية أشبه بالديباجة أو الإهداء، تقترب في ترتيبيها وشكلها من أسلوب السجع المشهور في كتابات العصور المتوسطة.

في النهاية نجحت إلى حدٍّ ما في تحقيق المخطوطة، بالرغم من الصعوبات إلى واجهتني حينها، كالخطّ وصعوبة التنقل من صفحة إلى أخرى بسبب قدم المخطوطة والخوف الذي شاب رحلتي من أن تتعرض للتلف. وقد ألحقت بالنسخة الجديدة الكثير من الحواشي والمصطلحات والشروح وما ثبّت بمراجع التحقيق، إضافة إلى فهارس الكتاب كفهرس الأعلام، وفهرس الأمكنة والبقاع، وفهرس الوظائف والمؤسسات الاجتماعية، وفهرس الأسلحة والأدوات والملابس والأمتعة وغيرها.

إلا أن شيئاً لم يكن على ما يرام، ما زلت أجهله أو في الأقل لا أفهم الجدوى من رغبتي الغامضة والمُلحة في إعادة كتابة المخطوطة بلغة معاصرة. ربما هي رغبة حقاً أو نداء حسيّ مجهول يأتي من تلك الأقاصي الزمنية التي التفّت حولي حتى صرت أرى الجدران على ما هي عليه قبل منتصف القرن التاسع عشر. أشمّ رائحة القهوة والتنباك والحليب الرائب. أسمع أصوات السياط وهي تضرب

ظهور العبيد بينما هم يحملون الملح على أكتافهم في سباخ البصرة. أرى الجندرمة على ضفاف شطّ العرب يغسلون أجسادهم المتعبة من حمل الجثث وإحراقها بعد الطاعون. وثمة معاول تحفر في الغرف المظلمة وعلى جانبي الطرقات قبوراً للموتى. الخيل وهي تجرّ جثث الأشقياء والخونة والمجذومين إلى الشطّ. السقاؤون والباعة المتجولون والمتسولين والراقصات والعاهرات والجواري والغلمان الحلوين. قرع الطبول ونقر الدفوف. العبيد وهم يرقصون «الهيوة» و «الليوة» على أنغام الخشابة والطنابير والزيران في ليالي الخميس. ربات الخدور في العليات المعتمة. الشناشيل ورائحة الساج الهندي والجذوع النجدية والسويكة ودخان الأفيون.

كأن روح المدينة تسكن طيات ذلك المخطوط، وتستصرخ المتصفحين لإخراجها من عتمة الماضي السحيق إلى بياض العصر الحديث. هل عليَّ أن أشعر بذلك حقاً، أم أني أُجبر نفسي على الشعور بأن ثمة مهمة أخرى تحتم عليّ إتمامها، وإلا فأني سأندم فيما بعد، كوني لم أنتهز الفرصة. تساءلت كثيراً وتهت في أشدّ اللحظات عتمة، تلك التي أصل فيها إلى ذروة تفكيري، قبل أن يتلاشى كل شيء في اللحظات التي تليها، عندما ينتابني أحساس مأساويّ بافتقاد الأماكن واضمحلالها في أتون الزمن الذي لا يهرم. الأماكن التي اندثرت مع حكايا الجدات قبل أن تُدفن في هذه المخطوطة السحرية، حيث لا أثر لشهرزاد.

أخيراً، اكتشفت أني كنت راغباً في إعادة كتابة محتوى ذلك المخطوط العجيب بلغة معاصرة. إنها عملية ليست سهلة، لكنني أعرف بأن المغامرة ستكون ممتعة، وربما فريدة، بالرغم من أني لست محترفاً، وفي القوت نفسه سأشعر بكوني غبياً حين أجد في إعادة صياغة هذه الحكاية أمراً تافهاً ومضيعة للوقت. ما يجعلني لا أتردد لحظة واحدة بعد الآن في قضاء فترة أطول أتردد أثنائها على مكتبة جامعة كمبريدج، من أجل تأليف رواية على ضوء الأحداث الغريبة التي احتواها مخطوط القصة خون البصري هداية بهرام أفندي.

هذا كتاب المقامة الزنجية في احوال بلدة البصرية
لعلامة عصره وفهامة دهره خاتمة القصة خونية
السيد هداية بهرام افندي بالبصرة المحروسة
لا زال رافلا في دار السعادة فائزا بالحسنى والزيادة
وهي حكاية لم يروها مثلها في سالف الزمان ولم تسافر
بشبهها عجز انسان وقد جوت كل معنى غريب
واسلوب عجيب خدم بها الوزير الكبير
والعلم الشهير ساقي شوكة بني
عثمان انسان عين هذا الزمان الوزير
سليمان نظيف باث اطال الله بقاه

(1)

صباح يوم من أيام الصيف المؤرقة، في أحد البساتين، قريباً من النهر، على الأرض المعشبة، بين سيقان السوس وحشائش الحلفى التي تنمو على جانبي السواقي الصغيرة، وجدت جثة «عزت رفقي باشا» مغطاة بأوراق الباميا.

كان رأسه مغموراً بعنف إلى رقبته في طمي إحدى السواقي، وما يزال الخنجر الذي طُعن فيه مغموداً في ظهره حتى المقبض. أما بندقيته الانكليزية التي يأخذها معه أثناء خروجه للصيد في مثل هذه الأوقات المبكرة بعد رياضته الصباحية، فقد عُلقت من نوطها على غصن شجرة من أشجار البمبر التي كانت تظلل المساحات المزروعة بالبربين والكرفس والريحان، فضلاً عن أشجار الحور والسدر والجميز والنخيل التي تنتشر بكثافة في البساتين الواقعة على ضفتي نهر العشار.

فجأة.. تعطل كل شيء في محلة الكرخانة: النساء شققن جيوبهنّ وقصصن شعورهن وخمشن خدودهنّ، عندما هجر الرجال مضاجعهنَّ وطوّقوا جنازة القتيل، أخذوا يدورون حولها في طقوس جنائزية، تتخللها الأهازيج الثأرية المشوبة بنبرة الانتقام من القاتل الذي أقدموا على حزّ رأسه وحمله إلى «نظلة خانم» التي لن تتصور بمكان أن يتأرجح نحوها رأس ما، حتى يستقرّ تحت قدميها الصغيرتين الناعمتين.

مراسم الدفن أُجّلت، حُملت جثة القتيل إلى قصره، ولن تُدفن حتى يتم العثور على الجاني. أُقفلت المقاهي والدكاكين، عُطّلت الكتاتيب، وفسدت الثمار في بساتين النخل والعنب، أكلت الطيور ما تيبس منها على الأشجار العطشى، في حين نسجت العناكب بيوتها في المخادع وعلى أسرّة النساء اللاتي بدأن يتأوهن وهنّ يشعرن بالملل، تأكلهنّ الحسرة على ليالِ الإنس التي كنّ يقضينها في الأحضان الدبقة، وقد يأسن من عودتها ما لم يُقبض على القاتل الذي ما زال طليقاً، في الوقت الذي بدأت فيه جثة «عزت رفقي باشا» تتعفّن في غرفة من غرف قصره الوارف، وتفوح رائحتها النتنة في الجوار.

الجميع في محلة الكرخانة يبحثون عن القاتل المجهول، يتحرون عنه في المقاهي والأسواق. من الجوع هزلت أجسادهم وبان على وجوههم اليأس، بعضهم كفّ عن البحث واعتكف مع شيخ المحلة في الجامع، بعيداً عن الطعام والنساء المهتاجات. البعض

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الآخر امتنع عن أكل الكافور، ولما عادت إليه شهوته شوهد وهو يمارس العادة السرية أو يطأ الحمير والكلاب على ضفة النهر، أو في أحراش البساتين. وحده «بوغيز» السقّا، ذلك الزنجي العملاق يدور في الأزقة، حاملاً قربته الكبيرة، يتنقل من بيت إلى آخر، يزود السكان بالماء الذي يجلبه من شطّ العرب.

كان «بوغيز» الزنجي إذا جاع أصدر صوتاً أجشاً عالياً ومزعجاً، كخوار الثور، يفعل ذلك أثناء تجواله بحثاً عن الطعام. أما إذا أزعجه الصبية فإنه يضرط لتفريقهم، يطلق ريحه الذي ينفرون منه ثم لا يعودون إلى مضايقته إلا في اليوم التالي، عندما يرونه يقوم بتوزيع المياه على البيوت. يقذفونه بالطمي وروث الحمير، فيبرز هذا مؤخرته مطلقاً فساءه الكريه الذي دائماً ما تعبق به مساحة واسعة، في أوقات يتجمع فيها الصبية من حوله، بغية التحرش به، فضلاً عن ذلك هناك أيضاً رائحة إبطيه التي يمكن تنشقها من مسافة بعيدة.

هو لا يتكلم إلا نادراً، ولا يكاد يُسمع له صوت، عدا الأوقات التي يشرع فيها بالخوار، حينما يبلغ به الجوع حداً يقف عنده عاجزاً عن تحمل المزيد من الانتظار حتى يرمي له الناس فضلات طعامهم. ربما يظهر بهيئة العملاق المخيف الذي يتمتع بمظاهر القوة والبطش، كما يبدو ذلك من عضلاته المفتولة وبنيته الضخمة، لكنه في الوقت نفسه لا يكون قادراً على إيذاء نملة، ودائماً ما يستأنس بالبكاء، تماماً كما يفعل الأولاد الصغار.

بإمكان «بوغيز» الزنجي أن يطلع على شعور النساء في البيوت التي يزودها بالماء، وإذا ما أتيحت له الفرصة فإنّ باستطاعته رؤية أكثر من ذلك كالسيقان العارية، والأفخاذ المكتنزة، والصدور الناهدة، دون أن يثير ذلك قلق الأهالي، ما دام أنه لا يملك القدرة على المضاجعة، أو حتى التفكير بالاستمناء بمجرد رؤيته ردف امرأة أو ساقها الملساء. وبالرغم من أن قصصاً مهولة ما زالت تُنسج حول عضوه الكبير، إلا أن الاحتراز منه، لم يعد سوى هواجس لا يجد المرء مسوغاً لكي يشعر بها، كون الرجل مخصياً، وليس بوسعه التصرف بشيئه، حتى وإن كان أكبر حجماً مما يتصوره الناس. وهو ما أُشيع عن «بوغيز» منذ فترة طويلة: شخص ينتمي إلى عائلة منقرضة من العبيد المخصيين.

وبالرغم من ذلك، دائماً ما يغضّ «بوغيز» السقّا بصره، ويشعر بالحياء من مشاكسة بعض النساء له، عندما ينفردن به في البيوت والأزقة الضيقة. يشيح بوجهه ناحية لا يلمح فيها ظلّ امرأة، أو يطرق برأسه متأففاً بطريقة دائماً ما تكون مثار سخط الكثير منهنّ. فيركزن النظر على الجزء المثير في جسده، ثم لا يصدقن أن ثمة شيء يمكن أن يكون بذلك الحجم الذي يتحدثون عنه، يختبئ خلف سرواله، مع أن ثمة شيء حقيقي يحتجب هناك، وتظهر عروقه عندما يكون السروال مبللاً، فيبدو واضح المعالم مهما اجتهد الرجل في إخفائه، فيشعرن حينها بالغثيان وتُبدي كل امرأة فضولها لرؤية ذلك الشيء الخرافي الذي يبدو كأنه قدم ثالثة شُدّت برباطٍ على أحد فخذيه العملاقيين.

دائماً ما يبدو «بوغيز» الزنجي كغول، غير أن الأولاد الصغار في المحلة اعتادوا ظهوره على هذا النحو، لعلمهم أنه لا يؤذي أحداً إلا في حالٍ يكون فيها مستنفداً قواه على تحمل المزيد من العنف الصبياني المزعج. أنه كهرٌّ أليفٍ بوسعه تحمل وقاحة الصغار بجرّهم ذيله أو قذفه بالحصى أو رشقه بالماء، لكنه ما أن يكتشف ضيق الحيز الذي حوصر فيه حتى ينقضّ على من فرض عليه الحصار.

ولا يشكّ أحد في محلة الكرخانة أن لهذا الرجل قدرة عجيبة على تحمل الشقاء، فضلاً عن الأمراض والأوبئة والأوساخ والروائح النتنة، بالطريقة التي تجعل منه بغلاً أكثر منه إنساناً في تصور الكثير من الناس الذين يرونه يقوم بأكثر الأعمال مشقة. يعرفون طريقته في العيش، ثم لا يبتعدون عن فكرة أنها حياة تعشش فيها التعاسة بشكل رهيب، دون أن يظهر عليه من تلك التعاسة شيئاً. فهو لا يشتكي من شيء عدا الجوع الذي يعبر عنه بخوار يمكن للجميع سماعه وقت الغروب. كونه الشيء الأكثر إيغالاً في جعله عبارة عن كتلة من البلاهة لا تفكر إلا في ملء معدة كبيرة تصنع شتى أنواع الأحماض والغازات المنتنة.

وسوى ذلك لا يفعل «بوغيز» شيئاً عدا ملء الأواني والأكواز بالماء الصالح للشرب، لكنه يبقى في إطار تلك الصورة التي يُنظر إليها بإعجاب، لكنها لا تخلو من سخرية وابتذال دائماً ما يكون هو هدفها.

تجاوز «بوغيز» الرابعة والعشرين من عمره، إلا أن ذلك لم يمنع رغبته في اللعب مع صبية المحلة الذين حفظوا منه الكثير من لعب الزنج والأحباش، وكانت لعبة «عظيم الضايع» هي المفضلة لديهم، والتي تجري بين فريقين، وعادة ما يكون «بوغيز» في جهة، بينما يشكل الصبية فريقاً متكاملاً في الجهة الأخرى. وبالتالي فإنه يخرج من هذه اللعبة خاسراً فلا يشعر بالانزعاج عندما ينتهز الصبية الفرصة ويركبونه أو يتعلقون بذراعيه القويين بينما يفعل هو ذلك بسعادة غامرة. ودائماً ما يكون لعب «الصكَلة ولاكَ» معه مملاً ومزعجاً للغاية، فرميته قوية وبعيدة لا تطولها أيدهم الصغيرة. ويتفق الحال مع لعبة «الدوامات الخشبية» التي يبرع فيها ولا يخرج منها إلا وقد حطم جميع الدوامات. وعندما يجهش الأولاد بالبكاء يهرب «بوغيز» خوفاً من ذويهم. لكنه ما أن يظهر في اليوم التالي حتى يمطرونه بوابل من الحجارة والنجاسات، فيُدمى رأسه ويقضي شطراً من وقته عائماً في النهر وهو يبكي كما لو كان طفلاً صغيراً.

أيضاً كان «بوغيز» الزنجي محظوظاً في «المهارشة» لكنه لا يستخدم الديكة في هذا المجال، إنما يعتمد على الكلاب والسماني والجرذان والعقارب التي يجيد البحث عنها، ويقضي وقتاً في تربيتها وتدريبها على القتال مع أخريات من جنسها في المقاهي، فيكون هو المنتصر في أغلب الأوقات، لكنه لا يقبض شيئاً من الرهان، وقد يستولي البعض على كائناته تلك دون أن يُكافئ عليها أو يدفع أحدهم ثمنها.

تقع صريفة «بوغيز» على ضفة النهر، ما زالت هناك منذ أن هجر محلة العبيد بعد وفاة والده، أقام جدرانها الطينية السميكة بنفسه، وسقفها بأعمدة «الجندل» الخشبية، وباريات القصب، ثم قام بلطش جدرانها بالطين والتبن، ونشر على سطحها التراب الناعم. يبلغ طول الصريفة أكثر من أربعة أمتار، في حين لا يقلّ عرضها عن ثلاثة، وكان «بوغيز» ينام فيها على سرير من جريد النخل، وضع في الزاوية القريبة من فتحة النافذة المطلة على النهر. هناك، حيث يرمي له ربابنة السفن الصغيرة التي تمرّ من أمامه حاملة البضائع من رصيف العشار بعض التين الجاف أو البندق والتمر الهندي، وخلاف ذلك سيضطرّ إلى إعداد وجبة من الضفادع والسرطانات الصغيرة التي يصطادها من الجرف، ويشويها في حفرة صغيرة، فيما يجفف عددا منها قبل أن يقوم بخزنها في «بستوقة» فخارية لصباح اليوم التالي، عندما لا يجد في المحلة من يكافئه بحلاوة التمرّ مع الطحين، أو بطبق من الباذنجان أو الكوسة المحشوة.

ويشتهي «بوغيز» الزنجي كل شيء، أو هكذا هو دائماً، تواقاً لإسكات صوت القرقرة المزعجة في أمعاءه، والحدّ من الرائحة الكريهة المنبعثة من إسته. فما زال يطلق تلك الغازات المنتنة حتى يطفئ جوعه، أو يكفّ الأولاد الصغار عن مضايقته.

وعدا ذلك السرير، ليس ثمة شيء في تلك الصريفة سوى كوز ماء، أواني قذرة، «صراي» يكسو زجاجته الساخام، «بستوقة» كبيرة بطلاء

أخضر، بارية من القصب تغطي أرضية الصريفة، مسمار كبير صدأ دُقَّ في الباب الخشبي من الداخل يعلّق عليه «بوغيز» ثيابه، بينما يعلّق قربته الكبيرة في الخارج، على عمود خشبي ناتئ من السقف.

يستمتع «بوغيز» بالعيد كثيراً، يحصل من النساء على قليل من الحلوى، ويكافئنه بالمزيد في حال أنه تغلّب على حيائه وكشف جزءاً من الشيء المخيف الذي يربض بين ساقيه طوال النهار. يحمله معه أينما ذهب، وليس هناك وقت يمكن أن يُرى فيه ذلك الشيء عدا الأوقات التي يكون فيها ناقعاً بالماء أثناء العمل، بينما هو يحمل قربته جيئة وذهاباً، فيلمحنه النسوة من وراء الأبواب، وإذا ما دخل بيتا، ينصبن له الفخاخ ويتحايلن عليه في غنج يستاء منه أحياناً، وفي بعض الأحيان يشعر إزاء تلك المداعبات بالحياء، إذ سرعان ما يهرق قربته في الأواني الفارغة، ويهرب عائداً إلى النهر.

(2)

بعيداً عن طريدون، أو دهشتا باد أردشير، هناك، حيث لا أثر للأرض الغليظة التي فيها حجارة صلبة تقلع وتقطع حوافر الدواب. في بلاد المستنقعات وماء الموح، الذي تفيض منه آلاف الأنهر الصغيرة على وجه الأرض، فيمكث أشهراً قبل أن ينتن ويتعفن الهواء. فتزداد الوخامة باشتداد الريح الشرقية الرطبة، ويعبق المكان برائحة عطنة تزكم الأنوف، فتنحل الأجسام وترتخي الأعضاء في كسل وضيق.

في تلك المدينة المسوّرة المتأثرة والذائبة في الهجين البشري – الديني العجيب، قريباً من نهر العشار المتفرع من شطّ العرب، أسس أحد الأثرياء مملكته الصغيرة على أنقاض محلة قديمة من محلات البصرة التي عبث بها الطاعون في عام 1873 .

ما زالت تلك المحلة أطلالاً هجرها أهلها، وأخربة تسف بها ريح الكارثة، تارةً تكون مسلحاً للعشائر الغازية، ومخبئاً للأشقياء

المُطَاردين واللصوص وقطاع الطرق تارةً أخرى، قبل أن تكون ملاذاً يؤمه الناجين والفقراء الوافدين من الهند وبلوشستان وبلاد العجم والأفغان والغجر والعبيد الذين أعتقهم الطاعون من سادتهم الأموات، والهاربين من تكاليف حملة الوالي التي وقعت على السكان، حتى وطأت قدما «عزت رفقي باشا» أرضها الموبوءة، في موكب مهيب يتألف من كتيبتان من الجند وجوق موسيقي، المشهد الذي أرعب اللصوص فتقهقروا إزاء القوة العسكرية الضاربة، فيما ارتاب الأهالي فلزموا خرائبهم، أغلقوا الأبواب تجنباً للجلد والكي بالنار، وهو العذاب الذي وقع على أتباع المتمردين.

في اليوم التالي، دعا «عزت رفقي باشا» الناجين من الأهالي، إلى وليمة كبيرة أقامها بين جذوع النخيل التي عُلّقت عليها اللصوص والمتمردين. وعلى الرغم من ذلك، اطمأنت نفوس الحاضرين بعد أن أحسوا بالشبع، فأمنوا من بطش الفارس الغريب. وقتها، تراءت لهم المائدة المعدّة كحلم أو مشهداً من ضرب الخيال. ففي الوقت الذي ما زال فيه الوالي سّاخطاً على سكان المدينة، يأتي هذا الرجل المطرّز كتفيه بالنياشين ليمدّ لهم يد العون كما لو كان يعرفهم وعاش بينهم منذ فترة طويلة.

بينما هم يفغرون أفواههم عجباً من كرم ومنطق الفارس الغامض، ذو الوجه المشوّه، وهو يتحدث إليهم في الساحة التي تتوسط المحلة، فاجئهم رجل يرتدي الأسمال، ملامحه متشنجة تدلّ

على خرقه، بصوته الذي أزعج «عزت رفقي باشا» وأفسد عليه ذائقته في اختيار أكثر الكلمات تأثيراً في الحضور، إذ راح ينادي عليه بينما حبات الرزّ تتطافر من فمه المزبد:

«مكي.. أنت يا مكي!»

ثم راح يدعي أن هذا الرجل الماثل أمامهم بهيئة الولاة إنما هو ابنه «مكي» الهارب. إلا أن أحداً منهم لم يعبأ بكلامه، إنما برز إليه من أسكته وألجم فمه بالشتائم والبصاق. في حين عاد «الباشا» إلى حديثه للسكان، راح يبذل المزيد من العهود التي تقضي بمساعدتهم في استرداد ما فقدوه أثناء الطاعون.

لم تمض على مجيئه سوى فترة قصيرة، حتى أنشأ «عزت رفق باشا» جامعاً وسوقاً وحماماً ومقبرة، فضلاً عن الدور التي أمر بترميمها وبناء أخرى في المحلة التي أخذت بالتوسع وكثر سكانها وعاد إليها أغلب التجار الفارين وازدهر سوقها الجديد وبساتينها والحرف التي انتشرت فيها.

تصطفّ الدور الجديدة في محلة «الكرخانة» على جانبي الطريق بصورة عشوائية، تقطع بعضها الطريق أو تضيّقه. وتمتاز دور الميسورين فيها، والمسقوفة بالساج الهندي بكثرة الشناشيل التي تبدو كأجنحة النسور، مشكلة بذلك الطبقات العليا لتلك الدور التي تمتدّ على جدرانها الميازيب الخزفية أو تلك المصنوعة من الخشب، من المراحيض

التي تُبنى على أسطح البيوت كالخراطيم، إلى حفرة في الشارع. على العكس من دور الطبقة الوسطى، إذ تُستعمل الجذوع لتسقيفها إلى جانب القصب والسعف والطين، علاوة على استخدامها في تقوية الأخصاص وبناء السلالم. وثمة نوع آخر من الشناشيل امتاز به قصر الباشا وحده، ويسمى «جناح» وهو أكثر امتداداً وسعة من النوع الأول، إذ يعتمد على أساطين مركوزة في الأرض بإزاء الجدار.

القسم الأكبر من بيوت «الكرخانة» بنيت من اللبن المجفف، كذلك هي دور الأثرياء، إلا أن مظهرها يبدو أفضل حالاً من بيوت الطبقة الوسطى والفقراء، بعدما تغلّف بالجصّ الأبيض والآجر الأصفر، الذي يقتصر نوعاً منه على ازارة جدران البيت المبني باللبن أو الطين. كما لا تخلو المحلة من الصرائف والخرائب التي يسكنها الفلاحون والمهاجرون.

وبدلاً من خرائب السوق القديم شيد «عزت رفقي باشا» سوقاً جديداً أخذ الناس يطلقون عليه سوق «المربع» نسبة إلى شكله المربع، والمحاط بالبيوت والحوانيت من الخارج، كما أن له ثلاثة أبواب ينتهي أحدها إلى حمام عام يشرف من الخلف على نهر متفرع من نهر العشار، أما الجامع فشيد مكان الذي أُحرق بمن فيه من ضحايا الطاعون.

كذلك أنشأ «عزت رفقي باشا» قصراً كبيراً يحتوي على العديد من الغرف والملحقات كالإسطبل والزريبة والسوباط ومنزل الخدم، وهذه تقع داخل السور المحيط ببناية القصر الذي جُعلت جدرانه الخارجية

سميكة جداً لتكون متينة بما فيه الكفاية ضد التشقق والتآكل بسبب الأمطار والرطوبة، إذ بُنيت من اللبن -الطين المخلوط مع الرمل- والذي يتم تغليفه بالآجر المفخور كي يضفي منظراً جميلاً للبناء يوحي بأنه مبني جميعه بذلك الآجر الذي تُستعمل معه مونة وهي القير فتُخلط بالرماد كي تتكون منهما مادة تعمر طويلاً.

أما الجدران الداخلية والتي بُنيت باللبن أيضاً فقد طُليت بطبقة من البياض سميكة نسبياً، نُقش عليها الكثير من الزخارف وصور الحيوانات والنباتات والكتابة. فيما طُليت غيرها بالأصباغ والدهان وعُمل منها لوحات في غاية الروعة والجمال. فيما جُعلت الجدران الداخلية والقواطع بين الغرف أقل سمكاً من الجدران الخارجية، حتى تتحمل الأثقال التي تشكلها الأقواس والسقوف الثقيلة المكسوة أسطحها بالآجر المربع الكبير. ويتكون الرواق من ممرات تسقفها الأقواس الأنيقة وثمة فتحات صغيرة في أعلاها تُستخدم للإنارة. وتقع باحة القصر في المنتصف، وتكون بعض الغرف المطلة عليها مرتفعة عنها، وتتكون واجهتها المطلة على الباحة من شبابيك خشبية ذات نقوش جميلة وزجاج ملون بنقوش هندسية جذابة. كما تتوسط تلك الباحة بركة تستخدم لغرض جمالي وأيضاً لخزن الماء الذي يجلبه السقاء من النهر. ثمة مساحة مسقوفة تحيط بالباحة، ترتكز من ناحية على الجدران الداخلية للغرف، ومن الناحية الثانية على أعمدة خشبية يتكون أعلاها من تاج يحتوي على زخرفة جميلة،

وتكمن أهمية هذه السقوف في حمايتها جدران الغرف من أشعة الشمس المباشرة، وتُستخدم أيضاً لجلوس الباشوات تحتها خصوصاً في أوقات العصر.

وقد حرص «عزت رفقي باشا» على أن تكون هناك أقبية لتكون ملاذاً له ولعائلته للوقاية من حرارة الجوّ، واستخدامها أثناء الشتاء كونها دافئة ولا تتعرض لأشعة الشمس المحرقة. فبُنيت تلك الأقبية تحت الغرف التي تعلو عن سطح الحوش، وسُقّفت بأقواس سميكة لكي تعطيها المتانة وتكون عازلاً حرارياً. وقد اتخذت التهوية نظاماً هندسياً معيناً ومتبعاً في الكثير من قصور الباشوات، إذ توجد مجار هوائية تشبه المداخن، تمتد من الأقبية إلى الغرف حيث توجد هناك فتحتات تسمح بدخول وخروج الهواء منها. وتمتدّ تلك المجاري إلى أعلى القصر ويمر عبرها تياراً هوائياً بارداً يأتي من الأقبية لينفذ في النهاية من الأعلى، فيعمل على منع الهواء من التعفن ويقلل من الرطوبة في الداخل، كما يسهل عملية تبدل الهواء بسرعة لا تؤثر على الجوّ، سواء كان ذلك في الصيف أو في الشتاء.

تأسست محلة «الكرخانة» بعد الاحتلال الزندي أثناء النزوح البدوي - الريفي الذي يحدث دائماً إثر الحروب والمجاعات والأوبئة ومواسم القحط المتكررة، حتى صارت المحلة تُدعى بهذا الاسم نسبة إلى «كرخانة» قديمة كانت موجودة في تلك البقعة وتعود ملكيتها إلى أحد التجار الأثرياء.

لقد ظلت القبيلة التي استوطنت المكان على ما كانت عليه من عادات وأعراف قبل نزوحها، تتخذ من الغزو وسيلة لكسب مواردها وإبراز مدى بطشها وقوتها بين العشائر، كانت تغير على المحلات والقبائل الأخرى وتنهب قوافل الحجّاج والتجار وتقطع الطريق حتى جاء اليوم الذي قاد فيه «سليمان أفندي» متسلم البصرة حملة تأديبية ضدّ القبيلة، فقتل رئيسها وعُيّن وجيهاً آخر بدلاً عنه، كما أنشأ فيها جامعاً وأقام عليه شيخاً يدعى «عبد ربه المفتي» وهي منذ ذلك الحين لا تمارس عاداتها علناً.

بذلك تسنى للشيخ «عبد ربه المفتي» أن يقوم مقام والده الذي كان من الداعين إلى مذهب «محمد عبد الوهاب» حتى كره الأهالي معتقده وتعنيفه لهم وقطعه شجرة يقدسونها في محلة المشراق. على إثرها أصدر المتسلم أمراً بالقبض عليه، فصار مطارداً، يتنقل متخفياً من محلة إلى أخرى حتى وصل إلى الصحراء، ومنها لجأ إلى إحدى قرى نجد. لبث هناك لأكثر من عام قبل أن يعود إلى البصرة متنكراً لإكمال دعوته، ولما شاع أمره بين الناس وسمع بذلك المتسلم رصد مكافأة لمن يأسره أو يأتي به قتيلاً. فما زال مطارداً من قبل السلطات والأهالي، حتى لقي حتفه على أيدي الزنوج أثناء مروره متنكراً في العشش التي يسكنون فيها وسُحلت جثته إلى سراي الحكومة .

منذ ذلك اليوم، والشيخ «عبد ربه المفتي» ينظر إلى السود بازدراء، داعياً إلى استئصال شأفتهم من المدينة، لأنهم «أنذال مناكيد»

كما يردد دائماً على لسان المتنبي. سرّاً، كان يملي على أتباعه الطريقة نفسها التي انتهجها أبوه من قبل. لكنه في الآونة الأخيرة، ربما بسبب خشيته من متسلم البصرة، راح يتباطأ في دعوته، وشيئاً فشيئاً غادر الرجل معتقده، ارتدى العمّة، خلع رداءه القصير، أطلق لحيته التي اندرست خلفها ملامح وجهه الشائخ، وراح يشتغل على الفتاوى وذكر موجبات الغسل والنكاح ومتى يتحقق الجماع، فكنَّ النساء في المحلة يسألنه أسئلة غريبة لا يتردد هو في الإجابة عنها.

في آخر حياته عكف شيخ المحلة على قراءة وشرح وتدريس كتاب «نواضر الأيك في معرفة النيك» لجلال الدين السيوطي، وقد اجتهد في ذلك علناً، اعتزل بعدها في مسجده، شاعراً بالندم بعد أن طرد ابنه البكر «غالي» بسبب ميوله إلى الطريقة الصوفية. ولم يزل على هذا الحال حتى وجد ميتاً أسفل المنبر في الجامع.

بعد أشهر من موت الشيخ «عبد ربه المفتي» وصل إلى المحلة شاب درويش ذو حمرة طاغية على وجهه وفي لسانه لثغة خفيفة، له ضفائر طويلة تتدلى على قفاه، يعتمّ بمئزر ويرتدي عباءة وقفطان.

نزل الدرويش الشاب في بيت الشيخ «عبد ربه المفتي» حيث بدأ هناك نشاطه بضرب الدف وإنشاد الأشعار في مناسبات الزفاف والطهور والمواليد النبوية، وما زال يفعل ذلك حتى صار له أتباع ومريدين. كان الأهالي يهرعون في ليالي الجمع لمشاهدة الدرويش الشاب وهو يقوم بخوارق العادات والأعمال العجيبة. كان يتناول النار في فمه

أو يُدخل السيوف والخناجر الحادة في أجسام مريديه دون أن ينزف منهم قطرة واحدة. مع مرور الأيام صار الدرويش يبرئ المرضى على طريقته، يقرأ عليهم الأدعية ويملأ ثيابهم بالتمائم والتعاويذ. مثلما فعل ذلك مع جارية جيورجية في دار المتسلّم، فأكرمه هذا وخصص له معاشاً، قبل أن يقيمه على جامع الكرخانة، ويأمر بإنشاء تكية خاصة به.

بذلك، نال الدرويش الشاب حظوة عند الناس، بعدما أكرمه أهلها وأحسنوا إليه، تبركوا به، جعلوا له بينهم مكاناً مرموقاً وأغدقوا عليه الهدايا والنذور. قبل أن يعرفوا أنه «غالي» الابن البكر لشيخهم المتوفى.

(3)

ما أن تم بناء القصر حتى جيء بخدم وعبيد «عزت رفقي باشا» من بغداد. خمسة عبيد وثلاث خادمات جميعهم من السود، لم يكن بينهم سوى صبي عار يبدو عليه الخرق تجاوز الثانية عشرة من عمره يُدعى «بوغيز» وتوأمه تُدعى «نفرين».

كانت «نفرين» وقتها تجرّ شقيقها من رداءه، بينما هما يدخلان مع ذويهما للمرة الأولى إلى باحة القصر. «أعطني يدك..» ولما يعجز «بوغيز» عن النطق، تمدّ هي يدها لتجرّه من عضوه الطويل. في الوقت الذي ما زال فيه الاثنان يتخبطان في مشيهما: «بوغيز» بسبب بلهه و«نفرين» بسبب دهشتها المستمرة من روعة البناء ومنظر الخيول والأزهار في الحديقة المنسّقة بمهارة. ولم يكن شقيقها يعبأ بشيء سوى اللعبة السوداء التي تحملها بيد، وتمسك بالأخرى قضيبه الذي ينزلق من بين أصابعها السود كل حين.

لقد اشترى «عزت رفقي باشا» تلك اللعبة قبل أن يعود من آخر رحلاته إلى الهند، وما أن أعطاها للفتاة حتى طفق يضحك، وما زال يفعل ذلك كلما رأى الشبه بين «نفرين» ولعبتها قائلاً: «أنت هي.. وهي أنت.. يا سوداء!» يقرصها من خدّها، يمدّ يده تحت ثوبها المزركش، في حين لا تفعل هي شيئاً، إذ ما زالت مبهورة بلعبتها حتى تندّ منها صرخة طفيفة، يستلّ هذا يده من تحت الثوب عابقة براحة كريهة. يجلسها في حضنه، يرهز عليها ببطء، فيما تبدو هي ناعسة قبل أن تبدي رغبتها في التغوّط.

كان عمر «نفرين» وقتها لا يتجاوز الرابعة عشرة، كان نهداها ينموان على صدرها بشكل غريب: «كبرت قبل أوانها!» يقول الأب. أما الأم فكانت تصمت دائماً، تودّ أن تصدق أن كل ذلك يجري بشكل طبيعيّ.

في قصر «عزت رفقي باشا» عندما بلغت نفرين عامها السابع عشر، شيء ما بدأ ينمو في أحشائها. لم يكن ورماً كما أكّد ذلك الطبيب «عزرة اليهودي» ولا حتى دودة مقززة من تلك التي تترعرع في بطون الفتيات ويُقتلن في إثرها ويَرمِيْن في الأنهار.

في صباح يوم من أيام الربيع، كانت فيه خارجة من «العليَّة» تحمل بقايا فطور «الباشا» إلى المطبخ في الأسفل، تلقّت «نفرين» دفعة قوية من الخلف، تدحرجت على السلم، ارتطم رأسها بالأرض، ارتطم بعنف، قبل أن تستقرّ هناك مغمىً عليها. أفاقت بعدها بدقائق،

راحت تشتكي ألماً معوياً حاداً أسقطت في إثره من أحشائها كتلة لحمية صغيرة ما أن رآها «عزت رفقي باشا» حتى شعر بالارتياح، مع رغبة وشيكة في التقيؤ.

بعد أيام، سيخطب «عزت رفقي باشا» لنفسه فتاة جميلة وصغيرة، بينما تحزم نفرين «بقشتها» استعداداً للسفر، بعدما أُهديت إلى مساعد قمندان البحرية التركية في البصرة الذي نُقل إلى الخدمة في مصر.

طوال وجودها مع عائلتها في القصر، وحتى قبل مجيئها إلى البصرة، اعتنت «نفرين» بشقيقها المعتوه. كانت تطعمه، تلبسه ثيابه، وإذا ما أحدث على نفسه تحممه. عادة ما تبادل نفسها أطراف الحديث، مفترضة أن المتكلم في الطرف الآخر هو «بوغيز» الذي لا يفقه شيئاً مما ترويه من حكايات تحفظها من والدتها التي أكثر ما كان يبعث على ارتياحها أن ثمة من صار بمقدوره الاعتناء بولد أبله مثل «بوغيز» بدلاً عنها.

لم يكن باستطاعة أمها «فيروزة» إنجاب أكثر من طفلين، إلا أن الذي حدث كان أشدّ قسوة مما لو بقيت عليه، في حال رفض سيدها أن تنجب أصلاً. فكانت ترى في «بوغيز» تلك الجثة التي لم تأخذ من الطبيعة الإنسانية شيء، وبالمقابل ورثت ما هو ليس طبيعياً على الإطلاق، هو قضيبه الذي ورث شكله وحجمه من أجداده الأفارقة الضخام في النوبة وزنجبار. على العكس من «نفرين» التي طالما اعتبرته لعبتها، قبل أن تتعرف على لعبة أخرى بهيئة فتاة زنجية

تشبهها كانت السبب في تعريتها، واضطجاعها المستمر على سرير الباشا، واتخاذها أوضاع جنسية غريبة ومستحيلة أحياناً، كأن يكون رأسها في الأسفل، وفخذيها إلى الأعلى، تطبق بهما على رقبة سيدها الذي يتمطق تارة وتارة أخرى يئن.

حتى بعد أن صارت تلك اللعبة الرخيصة ملكها، لم تتخلَ «نفرين» عن كونها شقيقة «بوغيز» الذي اعتادت عليه. كانت كلما كبرت يوماً، تشعر بأن أمراً ليس على ما يرام، سيظلّ ملتصقاً بشقيقها دون أن يكون ذلك مدعاة للشكوى. تظنُّ أيضاً أن هناك ما يجعلها تتصرّف وتتكلم وتفكر وربما تحلم أفضل منه.

لقد كَبُرَ «بوغيز» دون أن يشعر والده «عجيب» أن باستطاعته أن ينمو كما هو عليه الحال بالنسبة لغيره من الأولاد. وتعرف «نفرين» ذلك جيداً، وأن أبوها لم يفكر طوال حياته، بتقبيله مرة واحدة في الأقل، في حين فعلت ذلك هي آلاف المرات، مع أن ليس هناك شيء يجذبها لفعل ذلك. لذا، لن تخرج من دوامة تفكيرها بالأمر دون أن تعطي الحقّ لأبيها في التصرف مع «بوغيز» وفقاً لحالته كفتىً معتوه بمقدوره النمو لا ليكون شيئاً خارج السواد الذي يطغي على أجسادهم وحيواتهم، إنما ينمو ليكون أخرقاً وعديم الفائدة، كأنه خُلق ليأكل فقط ويطلق الغازات الكريهة.

إلا أن «بوغيز» هذا لم يبدأ بإطلاق تلك الغازات في وقت مبكر، إنما حدث ذلك أول مرة حينما حبسه أبوه في الزريبة لكي لا يسمع

«عزت رفقي باشا» بكائه المفرط على «نفرين» التي غادرت مع موكب مساعد قمندان البحرية على متن باخرة متجهة إلى السويس.

مُنع من الأكل، ولّما أصبحت معدته خاوية، بدأ بالخوار، وراح يُنتن المكان برائحته المزعجة. مع مرور الوقت لم يعد «بوغيز» يبكي لفراق شقيقته، إلا أن ذلك لم يمنعه من تذكرها بطريقة أو بأخرى، أو كلما رأى أمه تبكي في مسكن الخدم، نادبة فراق ابنتها بنعيٍ نوبيٍّ حزين. وقتها يبدأ الفتى بالبكاء، يخفي رأسه بين فخذيه، ينام جالساً على مؤخرته، متكئاً على الجدار لساعات يحلم خلالها بـ «نفرين» وهي تمسح بلاط الرواق، وفي مكان آخر، ربما في حديقة القصر الأمامية بين عناقيد العنب المتدلية، وثمار التين والنارنج والأترج والليمون والنباتات العطرية الجميلة.

يحلم بفتى أسود يحرّك قضيب أحد الأحصنة، خيول، عبيد يُجلدون بالسياط على ظهورهم في سباخ البصرة والبحرين، بأشياء أخرى عادة ما تحدث في الظلام، يستمني في إثرها، يقذف سائلاً يغرق سرواله ويسيح على الأرض القرميدية. يستفيق من أحلامه على أصوات ضرب الدفوف، يطلّ برأسه عبر النافذة، يرأى هناك.. في الحديقة «عزت رفقي باشا» جالساً في «سوباطه» الباذخ كأنه ملك، يرتدي ثوباً من السمور الفاخر، يلوح بسيفٍ قبضته مرصّعة أهداه له السلطان بعد ظفره برأس زعيم المتمردين، كذلك رأى الشيخ «غالي» بضفائره ولحيته وبشرته البيضاء وهو يُدخل الآلات الحادة في رؤوس

مريديه، وسط الطقوس الشائعة للطريقة الرفاعية.

أذهل المشهد بوغيز، أراد أن يقلد الشيخ «غالي» ففعل ذلك في اليوم التالي وكان يوم زفاف «الباشا»، كانت المحصلة أنه حرم نفسه من وليمة العرس في قصر سيده الفسيح، عندما رقد في الفراش بعد أن أدخل مسماراً صدئاً في خدّه الأيمن. سال الدم من وجهه بغزارة، وبدأت «فيروزة» بالصراخ، فبينما هي تصرخ و«بوغيز» ينزف كان «عجيب» ينهال عليه ضرباً بخشبة سميكة حتى ازرقّ جلده وأُغمى عليه.

لم يُفاجئ «رفقي عزت باشا» بوجود أبوي عروسه مع أنهما أبكرا في المجيء إلى القصر. كانت الأم متحمسة لرؤية المنديل الأبيض الذي سلمته لابنتها في الليلة الفائتة ملطخاً بدم البكارة، في حين لم يشغل الأب شيئاً في تلك الاثناء سوى ما ستخبره العروس بشأن وحمة بهيئة عضو تناسلي أسود وكبير على زند «عزت رفقي باشا» كما تردد ذلك على لسان «سعيد بكر أفندي».

في النهاية، بدلاً من أن يحصل الاثنان على ما ستجيء به ابنتهما، تلقا من فيروزة خبر موتها الفجائي بينما هي تتقلب كقطة على فراش الزوجية. لقد كرهت «فيروزة» أن تكون هي من ينقل الخبر، لكنها فعلت ذلك أخيراً مذعنة لطلب سيدها الذي فاجئها بعد انتهاء المأتم بعزمه على اخصاء زوجها مع العبيد الآخرين.

في الصباح الباكر لذلك اليوم الدامي، كان «بوغيز» ما يزال نائماً في مسكن الخدم، حالماً بـ «نفرين» وأيورة الخيول العملاقة، مغرقاً فراشه بمنيّه الكثيف، عندما استفاق على صوت «عجيب» وهو يصرخ في أحد سراديب القصر الباردة، وبينما كان «عزرة اليهودي» يجري بموسه الباشط على عضوه، كانت «فيروزة» تتشبّث بثياب سيدها متوسلة بالا يحرمها من مصدر أنسها الوحيد.

ولما كان «بوغيز» ما يزال في فراشه يصغي إلى صراخ أبيه، دخل عليه حارسان من حراس القصر، وحملاه إلى ذلك السرداب. رأى أمه هناك وهي تجثو على مقربة من سيدها الباشا، تبكي بمرارة بعد أن يئست من إمكانية أن يبقى «عجيب» متمتعاً بقدراته الجنسية.

نظر الفتى إلى والده الذي نُحّيَ جانباً ريثما يتم إخلاءه إلى مسكن الخدم، كان الدم يسيل من بين فخذيه، وقد حلّ مكانه عبد آخر، وكان هذا أقلّ مقاومة، فقط كان يئن إلى أن أُغمي عليه بعد أن تناول جرعة كبيرة من المسكر الذي أُعدّ لتخدير العبيد قبل الشروع بإخصاءهم. أشاح «بوغيز» وجهه عن المشهد المؤلم، دون أن يدري ما الذي يحدث بالضبط في هذا السرداب الموحش، ولماذا تغطي الدماء فخذي والده على هذا النحو، حتى جاء دوره بعد ساعات، قُيّدَ بالحبال، بعد أن عرّى الحراس نصفه الأسفل، ثم أفرجوا ساقيه، وقتها أحسّ «عزت رفقي باشا» أن ثمة صوت مألوف راح ينبعث من مكان ما في الجوار، كأن يكون صوت أمّه وهي تأنّ وتصرخ طالبة من

أحدهم بأن يُدخل المزيد من شيء بمنتهى القسوة والمتانة في جوفها. المشهد بكل تفاصيله تراءى أمام «الباشا» ما أن رأى قضيب الفتى الأسود الخائف، والراقد تحت رحمة مشرط «عزرة اليهودي».

لم يستطع الرجل تفادي المزيد من تلك الصور، انصرف إلى حجرته في الأعلى، شاعراً أن ثمة شيء يتحرك على زنده الأيسر في اللحظة التي سمع فيها «بوغيز» يطلق صرخة تختلف عن صراخ العبيد الآخرين الذي كانوا يتلوون ألماً في مسكن الخدم. بعضهم مات، والبعض الآخر لم يزل راغباً في العيش من دون أن يفكر بالنوم إلى جوار امرأة، قبل أن يعتقهم سيدهم وحرارة الجروح بين أفخاذهم لم تخفت بعد. قضوا بعدها من تبقى من حياتهم في محلة العبيد التي يسكنها أقرانهم منذ ثورة الزنج، إلا أن حبة منهم ما زالت متشبثة بذلك العنقود، ذلك هو «بوغيز» الزنجي الذي يعمل سقاءاً في محلة الكرخانة.

(4)

لا أحد في محلة الكرخانة يعرف كيف هبط عليهم «عزت رفقي باشا» على هذا النحو الذي أحيا فيهم الرغبة في العيش واستعادة حياتهم بعد أن فتك بهم الطاعون، قلص عددهم إلى النصف، فيما أحال النصف الآخر إلى جيف متعفنة. إلا أن أحداً منهم لم يجرؤ على سؤاله، ما دام أن ذلك من الأسرار التي يرغب الاحتفاظ بها لنفسه.

إلا أن ذلك لم يمنع الناس من ابتداع القصص التي تبحث في جذوره. بعضهم يقول أنه رجل فقير من قطر يعمل في الغوص بحثاً عن اللؤلؤ، عثر على كنزٍ ثمين هاجر به إلى البصرة مخافة أن يُسرق منه. ربما استعانوا على ظنهم هذا من خلال عينيه اللتين برز بياضها فبدتا مشوهتين. البعض الآخر يدّعي أنه لصّ سرق خزينة السراي الحكومي أثناء الطاعون. فيما يروى على ألسنة الآخرين ما مفاده أنه تاجر غني هلكت عائلته بالوباء بينما كان هو في رحلة تجارية إلى الهند.

وحده «سعيد بكر أفندي» الذي اختلَّ عقله بعد مصادرة ثروته من قبل السلطات، ثم فقدانه عائلته في الكوليرا يدعي أن «عزت رفقي باشا» هو ابنه «مكي» الذي كان شقياً من شقاوات البصرة وأشدهم بأساً، إذ وصلت به الجرأة إلى الإغارة على باخرة معاون «الصراف باشي» وقتله «مسيو سيمون» الذي كان ضمن مجموعة من الضباط الفرنسيين الذين استقدمهم والي العراق لغرض تقوية الجيش وتدريبه على النظم الحديثة.

كان مسيو سيمون هذا أحد تلاميذ «ديفو» الذي هجر فرنسا بعد سقوط نابليون، وكان يعمل في تدريب جيش «الشاهزادة» في كرمان شاه قبل أن يتم استدعاءه من قبل داود باشا بغداد قبيل سقوط المماليك.

بعد هذه الحادثة هرب «مكي» إلى جهة مجهولة، وقيل إلى إحدى إمارات الخليج العربي. إلا أن شيئاً من ذلك لم يبدُ عليه، كونه عاد بهيئة تدل على أن ثمة حادثة وقعت له فأدت إلى تشوه وجهه على النحو الذي ظهر به في ذلك اليوم. غير أن أحداً من الناجين لم يصدق ذلك، على اعتبار أن ما تفوه به سعيد بكر أفندي ليس فيه من الصحة ما يدعم قوله بأن هذا الشخص الغريب المدعو «عزت رفقي باشا» هو ابنه «مكي» الهارب. إلا أن شيئاً ما راح يتنقل على ألسنة الناس في المقاهي، ويتنابزن فيه النساء على الأسرة وفي الحمامات، بعد أن راهن «سعيد بكر افندي» في المقهى على وجود وحمة بهيئة قضيب أسود

كبير على زند الرجل الغريب الذي ما زال يدعي بأنه أحد أولاده.

كان «مكي» رجلاً غليظاً، يتمتع بقوة بدنية خارقة ويجيد استعمال السلاح. ومن جهة أخرى كان مجرماً جريئاً ومتمرساً، يرتدي سروالاً طويلاً ويلفّ الكوفية على رأسه بطريقة غريبة. كان يمشي بطريقة تميزه عن غيره ويشزر الناس بعينيه المخيفتين. لكنه في نظر الأهالي يبدو بطلاً يفتخرون به ما دام أنه يحميهم ويراعي تقاليد الدخالة والنجدة. فضلاً امتهانه اللصوصية بسطوه على قصور الأثرياء والتجار، ونهبه قوافلهم وفرض الإتاوة عليهم.

حدث في أحد الأيام أن أزعجه حديث الناس في المقاهي عن «مسيو سيمون» وما يتمتع به من حذق وبنية جسمانية ضخمة وخبرة في استعمال السلاح وتدريب الجيش. فصار في نيته التعرض له وربما قتله في أحد الأيام، لكنه كان منشغلاً في التخطيط لسرقة أموال الجزية السنوية التي تُرسل إلى بغداد.

كانت الحكومة قد كلفت معاون «الصرّاف باشي» بالسفر إلى البصرة لإتمام هذه المهمة. وما أن ذلك اليوم جاء اليوم حتى نفّذ «مكي» خطته عندما اعترض طريق الباخرة في «القرنة» وحدث أن صادف في حملته تلك مسيو سيمون الذي كان يرافق معاون «الصراف باشي» في رحلته النهرية، فرأى أن ثمة من بالغ في وصفه، فالرجل يبدو عجوزاً خائر القوى، ربما يبلغ الستين من عمره، أسمر الوجه يعلو شفته العليا شاربان أبيضان، وعلى عينيه حاجبان كثيفان، يرتدي

سروال تركي واسع وعلى رأسه قبعة صغيرة تميل نحو أذنه اليسرى. في تلك اللحظة استغل «مكي» الفرصة فأغمد حربته في صدره، وانتزع سترته التي ارتداها وراح يتبجح بها أمام سكان المحلة الذين استقبلوه بحفاوة وسط الأهازيج وهلاهل النسوة اللاتي أذهلهنّ رؤية أزرارها المزينة بالتاج الإمبراطوري والحروف الأولى من اسم نابليون، فيما تدلى من ثقب الزرّ صليب لويس المرغوب.

منذ صباه المبكر كان «مكي» يطمح أن يغدو في يوم من الأيام مثل «شيال الضبع» شقي المحلة الذي ذاع صيته واشتهر على نطاق واسع حتى دخل في عداد الأشقياء المرموقين في المدينة. وصار مضرباً للأمثال والحكاية التي لا تُملّ عندما يسهب الآباء في سردها لأبنائهم الذين تروقهم مناقب الأشقياء ومغامراتهم البطولية.

«شيال الضبع» هذا قُتل على أيد الانكشارية ورُبطت جثته بذيل حصان راح يسحب بها في طرقات البصرة قبل أن يتم صلبه على جذع نخلة حتى يكون عبرة لأمثاله من الأشقياء. إلا أن العكس هو ما حصل بعد هذه الحادثة، إذ اتسعت شهرة «شيال الضبع» في أرجاء المدينة، وصار الناس يندبونه ويجهشون عليه بالبكاء. وعندما جيء بجثته إلى المحلة أخذ الأهالي يدورون حولها وهم يدبكون ويطلقون «الهوسات».

منذ ذلك الحين ومحلة الكرخانة تفتقر إلى شقيّ آخر من طراز «شيال الضبع» يحمي أهلها من اللصوص وقطاع الطرق والأشقياء

الذين جُندوا من قبل التجار لتأديب الأهالي على تأييدهم الشقي القتيل الذي ظلّ مكانه فارغاً، حتى جاء اليوم الذي برز فيه إلى الساحة «سعيد بكر أفندي»، فاندهش الناس من رؤيته على هذا الحال، وكان يحمل معه بندقية ذات سبطانة يتميز سطحها الداخلي بوجود ستة خطوط طولاً تساعد في دفع القذيفة في الاتجاه المباشر نحو الهدف، والمزودة بالزناد اللازم لإلهاب البارود.

كان «سعيد بكر أفندي» هذا رجلاً من أثرياء البصرة، وكان بحوزته أملاكاً كثيرة يقع نصفها في محلة الكرخانة. وذات يوم فكر بإنشاء جسر حجري على أحد الأنهر المتفرعة من نهر العشار، والذي يقسم المحلة إلى قسمين، ليحلّ بدلاً من القنطرة المتهالكة التي نُخرت جذوعها وأكلت العثة ألواحها فصار الناس يشكون من خطورتها.

وما أن تم إنشاء الجسر حتى اغتنم متسلّم البصرة الفرصة وكان مديناً لـ «سعيد بكر أفندي» بـ (300) ليرة ذهبية، فأورد إليه أمراً يقضي بالمثول أمامه في سراي الحكومة. وهناك وبخه على بنائه الجسر دون استحصال الأذن الرسمي، قبل أن يوجه له ضربة قاصمة كادت أن تودي بحياته عندما فرض عليه غرامة مالية كبيرة، وبخلافه سيبعث إليه من يخنقه.

وحفاظاً على نفسه من الطلب اضطرّ «سعيد بكر افندي» إلى دفع المبلغ الخيالي للمتسلم الذي لم يكتفِ بهذا القدر، إنما استولى على أملاكه تباعاً بنفس الطرق الملتوية أو عن طريق الابتزاز وفرض

الأتوات حتى أعلن الرجل إفلاسه، فأصيب على أثرها بالعته وصار أقرب إلى الجنون، خصوصاً عندما اختفى ابنه «مكي» وهلكت عائلته في إحدى موجات الكوليرا القاتلة.

منذ ذلك اليوم وطموح «مكي» بأن يصبح شقياً مغواراً ينمو في ذاته كلما تقدم به العمر، حتى يتسنى له استرداد ثروة والده وأملاكه التي نهبها المتسلم. وما أن سنحت له الفرصة حتى أغار مع جماعته على السفينة المتجهة إلى بغداد عن طريق شط العرب وعلى متنها أموال الجزية.

ومازال «سعيد بكر افندي» يدعي الشقاوة لنفسه ويتفاخر بلصوصيته ومغامراته الخيالية حتى اخرفّ وظهرت عليه بوادر الجنون. في حين لم يشغل أحد الفراغ الذي تركه «شيال الضبع» منذ مقتله، إلى أن ظهر «مكي سعيد بكر» معرفاً بنفسه كشقيّ للمحلة، فظنّ الناس أنه سيخلف أباه المجنون في اصطناعه البطولة وهو ما يجعله مثله تماماً: أضحوكة للناس.

في ليلة من ليالي أيلول، استفاق الناس على صوت «مكي» الذي راح يقرع الأبواب في محلته، ويراهن على أنه الخليفة الشرعي «لشيال الضبع» مدللاً بذلك على إمساكه بنفرٍ من لصوص الليل، وقطع أصابعهم. فأستبشر أهل المحلة بذلك، وعقد التجار وأثرياء المحلة معه صفقة يتم بموجبها دفع الأتاوة له مقابل تخليصهم من السرّاق والجباة الأشقياء في المحلات الأخرى.

وبالرغم من كبر سنه، إلا أن «سعيد بكر افندي» ما زال يتمتع بصحة بدنية جيدة، ولم يسقط من أسنانه سوى اثنين، على العكس مما كانت عليه قواه العقلية، إذ لم يشكّ أحد في المحلة بكونه مجنون حقاً. وظل على حاله هذا حتى بعد اختفاء «مكي» وظهور الطاعون ثم انتشاره في أرجاء المدينة على نحو كارثيّ، إلا أنه خرج منه سالماً بالرغم من الخراب الذي عم محلات المدينة.

ها هو الآن يظهر من جديد، ويدعي أن «عزت رفقي باشا» هو «مكي» ابنه من زوجته الثانية التي قيل أنها اشتهت عبداً مخصياً من الأحباش كان يملكه وكانت وقتها حبلى بـ «مكي» فانتظر حتى وضعته ثم قتلها ولم تخرج بعد من النفاس. أما العبد فقد قطع ذكره بينما هو نائم وحبسه حتى كاد أن يموت من الجوع لو لا أنه لاذ بالفرار.

لم يكترث «عزت رفقي باشا» لتلك الادعاءات التي صرح بها «سعيد بكر افندي» على مرأى ومسمع من الناس، ومازال «سعيد» هذا يشهر به في المقاهي والأسواق، حتى جاء اليوم الذي اختفى فيه تماماً، قبل أن يتم العثور عليه ميتاً في الخربة التي يسكن فيها، وقيل أن أفعى لدغته، فيما أكد آخرون أن الخمرة قتلته.

وبالرغم من ذلك لا زال بعض القاطنين في المحلة يؤكدون أن «عزت رفقي باشا» هو أحد قواد الحملة العسكرية التي أرسلها الوالي من أجل القضاء على حركة المتمردين الذين انتهى بهم المطاف في

إيران، قبل أن يتم تسليمهم وفق معاهدة إلى السلطات العثمانية، ويتم إعدامهم في البصرة على يد «عزت رفقي باشا» الذي يقال أنه احتز بيده رأس زعيم المتمردين وأرسله إلى الوالي في بغداد مع رسالة يلتمس فيها إحالته على التقاعد.

هكذا انتشر الخبر في عموم المحلة، واستُدلّ على ذلك من لباس الباشا العسكري العثماني الذي ظهر عليه أول مرة أثناء دخوله، يحفّ به الحراس المسلحين من كل صوب، راح يتجول في أرجاء المحلة ويتفقد الأمكنة التي غدت خرائب يقطنها الجياع، حتى بدا أنه يعرف المكان جيداً، خصوصاً أنه وقف زهاء ساعة وهو يتأمل أطلال الدار الكبيرة التي كانت تقطنها عائلة سعيد بكر افندي.

سرعان ما استبدل «عزت رفقي باشا» لباسه العسكري بثياب الأفندية، ارتدى «القندرة» والطربوش والملابس الإفرنجية الفاخرة. الأمر الذي جعل البعض من الأهالي ينادونه بالأفندي. أما البعض الآخر فاستمرّ على تسميته بالباشا بعد أن انتقلت إلى حوزته الكثير من الأملاك والأطيان التي انتقلت ملكيتها إليه من متسلم البصرة المتمرد وذلك بموجب فرمان ورد من الباب العالي.

(5)

لم يمضِ على موت «سعيد بكر افندي» سوى عام واحد حتى نسي الأهالي أمره، والشكوك التي انتابت البعض حول موته خنقاً أو بالسمّ. إلا أن أحداً لم ينسَ الوحمة التي ما زال يتفكّه بها الناس في الحوانيت والحمامات والمقاهي. وكان كلما أراد الباشا التزوج من فتاة يطلب الأب من ابنته التحري عن تلك الوحمة، وفيما إذا كانت موجودة أصلاً على زند عزت رفقي باشا.

لكن شيئاً من ذلك لم يتضح بعد، فما أن يدخل الباشا على عروسه في ساعة متأخرة من الليل، حتى يخرج في صباح اليوم التالي ضجراً، على وجهه نذر الشؤم تلوح، يومئ لعبيده، فيدخل هؤلاء الحجرة ليرفعوا جثة جديدة لعروس ماتت بالأمس على سريره.

لم يؤخذ الأمر أكثر من كونه حظاً سيئاً وقع «عزت رفقي باشا» في وحله. إلا أن الكثير من الأهالي لم يرحبوا بسوق بناتهم إلى حتفهنّ

الذي كان ينتظرهنّ في القصر، إذ صارت الفتاة تندب نفسها ويودعها ذويها بالبكاء والعويل كأنها بذلك تسلك الطريق الأقرب إلى القبر بدلاً من سرير الزوجية. لكن شيئاً ما حدث أخيراً ووضع نهاية لسوء الطالع الذي راح يحصد بالفتيات واحدة تلو أخرى، بعد أن قُتل «الباشا» في ذلك اليوم، لتكون «نظلة» ابنة الشيخ «غالي عبد ربه» الناجية الوحيدة من بين الفتيات اللاتي متن بعد زواجهنّ منه، قبل أن يموت ويُدفن معه السرّ وراء الموت المفاجأ الذي حلّ بزوجاته السابقات.

«نظلة» ذات السبعة عشر عاماً، لم يكن أمامها سوى الرضوخ لرغبة أبيها في تزويجها من «عزرت رفقي باشا» دون أن يشعر بالشفقة إزاء توسلاتها بأن لا يسوقها إلى حتفها كما فُعل بالفتيات قبلها. فقط راح يسألها عن عدد الأيام التي تسبق طمثها فعدت بأصابعها حتى الثلاثة وأخبرته همساً، هرع بعدها إلى قصر «الباشا» ليضرب معه موعداً للزفاف

خمنت «نظلة» أن موعد زفافها لا بد وأن يكون بعد انتهاء فترة الطمث، حيث جرت العادة على هذا النحو، بالتالي هناك عشرة أيام في الأقل تفصل بينها وبين لقاء حتفها، بدلاً من تلقي قضيب الباشا بين فخذيها، ربما ستكون تلك الأيام هي الأخيرة في حياتها، لكنها فوجئت في اليوم الثالث بتقديم موعد زفافها على «عزت رفقي باشا». أحست بالحمى تسري في أنحاء جسدها المرتعش. تجمع العرق على جبينها وسال البول الممزوج بالدم من وسطها بغزارة مكوناً تحت

قدميها حيث البلاط القرميدي المتآكل بقعة كبيرة عفنت هواء الغرفة التي راجت فيها رائحة كريهة.

جيء بـ «نظلة» مع ثيابها وحليّها إلى القصر. كانت تستقل عربة يجرها حصانين أشهبين، يقودهما أحد العبيد الألبان، مع غلامين وسيمين، فيما زُيّنت العربة بشكل باذخ أذهل الأهالي. أقيمت وليمة كبيرة حضرها متسلم البصرة وحاشيته من كبار الضباط في الجيش العثماني، وجمع من المسؤولين المحليين، أضف لذلك العدد الغفير من الفقراء والمتسولين والوافدين والعبيد والجنود وسكان المحلات المجاورة.

استمرّ الحفل حتى ساعة متأخرة من الليل. كان هناك الغجر، والزنوج الذين هرعوا من بين العشش والخرائب، وتفننوا في تأدية أكثر الرقصات إثارة لدهشة الأهالي الذين أطرب أكثرهم الفن السواحلي الأفريقي، وأغاني البحارة التي اهتزّت لقرع طبولها خصور الغجريات الجميلات، اللائي برعن في إسالة الزبد من أفواه المتفرّجين!

أكثر ما أزعج الشيخ غالي عبد ربه هو وجود الزنوج في الحفل، إلا أن شيئاً من الذي جال في خاطره، وتمنى لو يصنع منه مجزرة للعبيد لم يكن متاحاً في ذلك الحين، فحبس نفسه في بيته ناقماً على ما فعله «عزت رفقي باشا» بدعوته أولئك الزنوج.

وقتها، كانت «نظلة» محاطة بالنسوة اللاتي خضّبن يديها وقدميها

بالحناء، رحن يرقصن ويصفقن طوال الليل، بينما كانت هي تبكي بحرقة، ويُغمى عليها بين ساعة وأخرى، أو كلما تذكرت أنها ستموت ما أن تحين اللحظة التي يدخل فيها «الباشا» إلى مخدعها، يعريها، يطأها، قبل أن تلفظ أنفاسها إلى الأبد. لكنها تذكرت أنها ما تزال في بداية طمثها، وإلى أن يتوقف النزف، ربما تموت على سريرها، بينما والدها يستمتع بأموال ديّتها التي دفعها «عزت رفقي باشا» مقدماً.

مضى على زفافها ثلاثة أيام ولم يحدث شيء، الأمر الذي لم تكن تتوقعه «نظلة» إذ ما زالت تظنّ أن شيئاً من سوء الطالع سيصيبها في النهاية. وما أن يجيء صباح اليوم الرابع حتى تغدو جثتها على دكة المغتسل قبل أن يزفها الاهالي إلى القبر.

في صباح ذلك اليوم استيقظت «نظلة خانم» من النوم، نظرت حولها إلى أثاث الغرفة، رأت أن شيئاً لم يتغير. كل شيء على حاله كما تركته في مكانه بالأمس. شعرت بالخوف، راحت تتلمس جسدها وتفرقع بأصابعها البيض الناعمة. ظنّت للحظة أنها ميتة فعلاً، ترقد في مدفنٍ كبيرٍ أنشأه زوجها ثم نقل إليه كل تلك الأشياء والأثاث. لكنها ما أن رأت أشعة الشمس المستلقية على فراشها من خلل النافذة الساج الكبيرة لغرفتها الفارهة، حتى أحسّت أن أيّاً من تلك الاحتمالات لم يتحقق بعد، وأن هناك يوم آخر أُضيف إلى حياتها المهددة. جالت بعينيها في أرجاء الغرفة، لكنها لم ترَ أثراً لزوجها، ولّما سألت عنه قيل لها أنه خرج باكراً كما هي عادته كل يوم، حاملاً معه

بندقية الصيد. فشعرت الفتاة بشيء من الطمأنينة، أراحت جسدها على السرير، مستغرقة في تفكيرها وما يمكن أن يحصل لها في القابل من الأيام. ومن هناك تلقّت من الخادمة السوداء من «فيروزة» نبأ مقتل «عزت رفقي باشا» فشعرت بالغبطة ورأت أمامها ثمة حياة جديدة.

أما «الشيخ غالي عبد ربه» فقد جمع الأهالي في مسجده، وراح يحرضهم على الانتقام لسيدهم الذي انتشلهم من البؤس. لكنه من جانب آخر ضمن لابنته قسماً كبيراً من تركة القتيل.

في اليوم التالي سألن النسوة «نظلة خانم»: «هل رأيت شيئاً على زنده يا ابنتي؟»

«لا...» قالت «نظلة» وهي تحمر خجلاً من سؤال امرأة أخرى راحت تفاكهها قائلة:

«ألم ينم معك؟!»

«أبداً....» قالت الفتاة وكانت ما تزال تغطي وجهها من الخجل: «كنت نجسة!»

بعد هذه الحادثة ورثت «نظلة خانم» الحصة الأكبر من أموال وأملاك «عزت رفقي باشا» التي تناهبها المتنفذين، فيما لم ينل الفقراء والفلاحين والعاملين في أطيانه وبساتينه والدكاكين التي يملكها وذوي أزواجه الميتات شيئاً من تلك الثروة.

(6)

مضى على حادثة مقتل «عزت رفقي باشا» ثلاثة أشهر، وما زال الأهالي في محلة الكرخانة يتوعدون، يعظّون أصابعهم تحرقاً للانتقام، دون أن يعثر أحدهم على القاتل. فيما لا تزال جثة القتيل في حجرته تنفث الروائح النتنة، تعفّنت، انتفخت وازرقّ جلدها، مال إلى السواد، عاثت بها الديدان قبل أن تظهر عظامها وتهزل رويداً في مشهدٍ هربت منه «نظلة خانم» مع خدمها وعبيدها.

بينما كان الأهالي ينحلون شيئاً فشيئاً، تبرز أضلاعهم وعظام وجوههم الكالحة المتجهمة، بسبب إضرابهم عن الطعام حزناً على سيدهم المغدور، كنَّ النسوة في المحلة يزددن وزناً، يشعرن بالدوار ويتقيأن في اليوم مراتٍ عديدة، مما جعل حلاق المحلة في شغل دائم يتنقل لاهثاً من بيت إلى آخر، حتى جاء الوقت الذي أعلن فيه للشيخ «غالي» الذي أخذ على عاتقه تسيير أمور الناس، أن ثمة شيء

غامض رجَّح أن يكون وباءاً خطيراً قد أصاب النساء في المحلة.

بدأ الأهالي في محلة الكرخانة يتململون من تناول الكافور المخلوط مع عجينة الخبز، مما أثار حنق الشيخ «غالي» وجعله مصراً على عدم إباحة النوم مع نسائهم، ما دام أن هيكل سيدهم ما زال هناك، في حجرته لم يُدفن بعد. اصطحاب الغلمان، ظاهرة تفشت أخيراً، صار الرجل لا يكترث لامرأته أكثر من توقه لمضاجعة الكلاب والحمير والقطط السمينة. انتشرت الدعارة في أرجاء المحلة التي صارت تستقطب العاهرات والغلمان الحلوين من أنحاء المدينة. كثرت المباغي السرية حتى تفشت بين السكان الأمراض الجلدية والتناسلية إلى درجة عجز فيها «شميل العطّار» عن توفير الأعشاب اللازمة لمكافحة السيلان، والسفلس، والطفح الجلدي والأكياس المائية.

لم يكن ذلك يجري بمعزل عن الشيخ «غالي عبد ربه» الذي انتهز الفرصة أخيراً، جمع أتباعه ومريديه وقوة من الجندرمة ليقودهم في حملة واسعة لم تبق فيها عاهرة إلا وعُلِّقت عارية من ثدييها، أو جُمع حولها من يرجمها أو يجلدها أو يكويها بالنار. أما الغلمان والمخنثون فقد أمر الشيخ أتباعه بحبسهم في زريبة وتجويعهم، قبل أن يُدس في إست كل واحد منهم السليكون، قُدم بعد ذلك إليهم الطعام، أكلوا حدّ التخمة.. ثم ماتوا دفعة واحدة.

بعد مجزرة الغلمان في الزريبة، عاد الأهالي إلى التهام الخبز المخلوط مع الكافور، في حين ما زال كل فرد منهم لا يلمس امرأته بفتوى من

شيخ المحلة الذي راح يعظهم في أيام الجمع، ويذكرهم بثأرهم، أو يحثهم على الانتقام من قاتل ولي نعمتهم «عزت رفقي باشا» عازياً السبب في تورم أحشاء نسائهم إلى تباطئهم عن الاقتصاص من الجاني.

تأججت الجذوة في نفوسهم ثانية، بان ذلك في أعينهم أو من خلال الأهازيج التي أثارت العصبية في نفوس البقية من السكان على النحو الذي أراده الشيخ «غالي» وبينما هم يبحثون في أنحاء المدينة عن القاتل، كن النساء يسمنَ في كل يوم بشكل مخيف، يبدو ذلك على بطونهنَّ التي أخذت بالانتفاخ، صرن يشتهين نشارة الخشب والذباب والحبال ولعاب البعير، فيما لازال القسم الأكبر منهنَّ باشتهاء دائم لأكل الضفادع وبصاق «بوغيز» الزنجي ومخاطه الكريهين.

تلك النسوة، ما الذي يجعلهنَّ يزددن وزناً ويدفعهنَّ لاشتهاء كل تلك الأشياء، بما فيها فساء السلاحف؟ تساءل الشيخ «غالي عبد ربه» في نفسه، خشي أن يبلغ الأمر حداً يُصعب معه إنكار أن كل ما يجري في المحلة هي لعنة حقيقية لحقت بالأهالي جرّاء عجزهم عن الانتقام لـ«عزت رفقي باشا» الذي انتهى به المطاف هيكلاً عظمياً تعشش فيه الفواخت في حجرته المعتمة. كذلك تساءل ربيع بائع القماش في السوق المربع، وكان جالساً عند ضفة النهر،إذ ما زال يتوافد إلى هناك الكثير من الناس لاصطياد المزيد من الضفادع نزولاً عند رغبات النساء الممسوسات.

«أنت رجل صالح أيها الشيخ، إلى درجة أنك تبصر الأمور

قبل حدوثها...» قال «ربيع القماش» ثم وثب أمامه، محاولاً الإمساك بضفدع صغير انزلق من بين أصابعه، فأمسك به أحد الصبية، وراح يصرخ باكياً، بعد أن ضربه القماش وأخذ منه الضفدع:

«هل هي حقاً لعنة؟»

«حتماً...» أجابه الشيخ وهو ينظر إلى سمكات رحن يقفزن في منتصف النهر: «وبينما هي تزحف نحوكم، تلهون أنتم باصطياد الضفادع واللهاث وراء بوغيز الزنجي، تتوسلونه من أجل مخاطه ولعابه النتنين... أنظر إلى هؤلاء؟!!»

أشار الشيخ إلى مجموعة من الأشخاص دخلوا في شجار عنيف:

«من أجل ماذا: ضفدع صغير!! هل تصدق هذا؟»

قال الشيخ متأسفاً ثم أشاح بوجهه عن «ربيع القماش» منزعجاً من الضفدع في يده. سرح في خياله متأملاً مشهد النخيل في الضفة الأخرى، يراقب بعينين نصف مغمضتين السمك الذي ما زال يقفز بمرح هناك، في منتصف النهر. رأى سمكة طويلة تقفز كل حين. تذكر تلك الليلة قبل أربعة أشهر، حينما سمع زوجته الثانية تئنّ متنهدة في نومها، تنادي باسمه كما كانت تفعل ذلك وهما يتضاجعان قبل اعتكافه.

وقتها كان الظلام حالكاً في الغرفة، لكنه لم يشكّ أن شيئاً ما وثب من فوقه، ربما جرو أو قطة أو خفّاش تائه، صفعه بقوة، خلّف على

وجهه مادة لزجة لها رائحة غريبة. ما زالت زوجه تصرخ وتنادي باسمه، حتى أيقظها مما كان يظنه كابوساً مزعجاً، وما أن هدأت وتلاشت مخاوفها حتى سألها الشيخ عن سرّ الضجة التي أحدثتها بصراخها، وما الذي كانت تريده في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

قالت الزوجة باكية، لائمة زوجها بنبرة معاتبة:

«هل تشكُّ فيَّ أيها الزوج العزيز؟!»

«ما عاذ الله يا امرأة...» نهض الشيخ من مكانه قائلاً. بينما هو يشعل السراج، سارعت هي لتغطية ما تكشف من جسدها الفتيّ عدا قدميها، وراحت تنظر إلى زوجها بشيء من الخوف والعاطفة التي مزقها سؤاله:

«ماذا كنت تفعلين؟» اقترب منها. ثمة شيء سائل على قدميها، راح يتعقب أثره على ساقيها وصولاً إلى فخذيها. سألها بغضب:

«ما هذا الشيء؟!» ثم سرعان ما احتوى غضبه عندما تذكر أنه عازف عن مضاجعتها منذ فترة طويلة، بالتالي صار لزاماً عليها أن تمرّ بما تمر به بقية النساء في المحلة. قال وهو يداعب خصلات من شعرها:

«هل...» لكنه لم يكمل عبارته، فهمت الزوجة ما تردد عن قوله، شعرت بالحياء، حجبت وجهها الذي ذهبت صفرته وحلت مكانه حمرة طغت على خديها الموردين، بدأت تتلوى بغنج كالفتيات

المراهقات. الأمر الذي دفع الزوج لسؤالها بنبرة أقل حدة، لكنها أكثر دلالة على قلقه من المحذور:

«هل هو أنا؟!»

«نعم...» قالت الزوجة، وهي تعضعض أظافرها الطويلة بأسنانها البيض، مائلة برأسها على كتفيها كل حين. ظلت تفعل ذلك حتى أحسّ الزوج بالارتياح، ولكي يطمئن أكثر، نزع عنه ثوب التزهد، راح يتوسلها أن تخبره تفاصيل ما رأته في منامها، ما دام أنه على سرير النوم وليس في الجامع. شرعت الزوجة تروي له سبب استمنائها قائلة بعد تأمل وتفكير طويلين، بحياء راح يتلاشى بين طيات الكلام:

«كنا أنا وأنت في قارب في وسط النهر. فهبت عاصفة قوية، وانقلب القارب، فغرقت أنا وبقيت أنت عائماً على السطح. كنت أصرخ وأنادي عليك، فغطست أنت لكي تنجدني، لكنني جذبتك معي إلى القاع. حاولت الإفلات مني، لكن دون فائدة، فقد كنت أطبق عليك بقوة.. وهناك، بين أسماك «البنيّ» و«السمتيّ» و«الشبوط» وعلى فراش من الطحلب والمرجان، حدث الأمر!»

استأنس «الشيخ» بما روته زوجه، راح يقرصها من خديها الناعمين، أوشك أن يفعل ما تراءى لها في الحلم، لو لا تذكره الحداد على صهره القتيل، تظاهر بالحزن امتنع عن مضاجعتها، على الرغم من توسلها به، وهي تبكي بمرارة. لكنه لم يأبه للأمر إنما اندس في

فراشه وانتظر حتى انصرفت هي إلى الحمام، أخذ عينة من السائل الذي ملأ المكان، وضعه في قارورة زجاجية صغيرة. هرع حاملاً الفانوس إلى ناحية في البيت، وهناك أمعن النظر في محتوى القارورة، رأى سائلاً ذو حمرة شفافة له رائحة كصدأ النحاس. وضع بعضه على التراب فتجمع حوله النمل بكثافة، وعندما ألقى ما تبقى منه في أناء ماء رسب السائل في القاع.

أقعى الشيخ «غالي» راح يندب حظّه. أحسَّ بانغماره في قاع تكتنفه الرطوبة المخنقة وتحيطه السوائل الكريهة من كل مكان. تنقضّ عليه كائنات هلامية تغرقه ببصاقها، غيلان سوداء ترهز على زوجه بوحشية. الشيء الوحيد الذي لم يفهمه بعد هي الصفعة التي تلقاها في تلك الليلة المظلمة. هل كان يحلم هو الآخر، فصفعته سمكة كبيرة، بينما هما يتضاجعان في قاع النهر؟! وأي نوع من الأسماك تلك التي تفوح منها الروائح العطنة؟

«هل هي سمكة حقاً... أم...!!»

تساءل ثم استغفر راجماً الشيطان بجملة من الفشار والأدعية، وهو ينظر إلى «بوغيز» الزنجي يغرف من ماء النهر، يلمح من هناك عضوه ذو العروق الناتئة من وراء السروال المبلل، قبل أن يحمل هذا قربته الكبيرة، ويتجه بها صوب المحلة، يركض خلفه بعض الصبية بغية الحصول على فساءه ومخاطه وعرق إبطيه.

التفت الشيخ إلى يساره، حيث كان يجلس ربيع القماش إلى جواره على صخرة كبيرة لكنه لم يجده. كان يقف على مقربة منه، يكيل الشتائم للصبي الذي تشبث بثيابه زاعقاً باكياً:

«أريد ضفدع أمي...! هاته... أنا الذي اصطدته.. هاته أيها القماش اللصّ!!»

عاد الشيخ إلى بيته، ظنَّ أن الناس في محلة الكرخانة يحسدونه، كونه غير مجبر على اصطياد الضفادع والأفاعي وبول الرضع. خلسة رأى امرأته في الباحة وهي تصطاد الذباب بطرف سعفة. وفي كل مرة تسقط فيها مجموعة من الذباب تلتهمها، ولعل أكثر ما أثار دهشة الشيخ حينذاك هو أن زوجه كانت تفعل ذلك بشراهة، كأنها لم تأكل طيلة حياتها.

ما أن رأى الشيخ «غالي» ذلك حتى جمع الأهالي، صلّى بهم العشاء، أنبأهم أن مسّاً من الشيطان أصاب نساء المحلة، وخوفاً من أن تغضب الشياطين التي تسكن فيهنّ، نصحهم بتلبية رغباتهنّ:

«لا تبخلوا عليهنّ بشيء، حتى وإن رغبن بالدم ولحم الخنزير، خشية أن تغضب الشياطين المتلبسة أجسادهنَّ. بوسعكم أن تفعلوا ذلك ريثما تزول اللعنة التي لا ينفع معها دواء. ذلك هو البلاء فارضوا واقنعوا، أو اقتصوا من قاتل المغفور له عزت رفقي باشا...»

«حسن...» قال أحدهم مخاطباً الشيخ: «أنت شيخ المحلة وعالمها الوقور.. جد لنا حلاً»

«نعم أيها الشيخ الروحاني...» قال آخر: «إشفي نسائنا»

تعالت أصوات الاهالي بين متوسلٍ وغاضب: «جد لنا حلاً.. جد لنا حلاً!...».

ازدهرت تجارة الذباب والقطط وبول الرضع وقراد البعير والجراد وعرق الزنوج والوزغ والسلاحف الصغيرة والسرطانات النهرية والسحالي وجذور النخيل والمحار وأمعاء السمك والجري وعظام الموتى وجلود الأفاعي واليرابيع وأعين الدواب والسنة الكلاب والخنافس والصراصر وفراء الجرذان والطحالب وخيوط العنكبوت والقيح والتبغ وريش الغربان وأعراف الديوك وأرجل الدجاج وذروق الحمام، وغير ذلك مما تشتهيه النساء الممسوسات. نسي الأهالي ثأرهم، راح البعض يتوسلون الزنوج كي يبيعونهم بول رضعهم. حتى أن الفرد في محلة العبيد صار يزكم نفسه عنوة ويركض في الظهيرة ابتغاء حصوله على المخاط والعرق لكي يبيعهما في محلة الكرخانة التي صار سكانها يبادلون التمر بالذباب، واللحم بالفئران والحنطة بمسحوق العظام وخصي الكلاب.

كل تلك الأشياء صارت تُباع بثمن، إلا بصاق «بوغيز» الزنجي، فقد راح يمنحه بالمجان بعدما تجمع حوله بعضهم على مقربة من

النهر وبدئوا يتوسلون به مشكلين طابوراً طويلاً. فكان إذا بصق بيد الرجل، يركض هذا إلى داره فرحاً كأنه بذلك حصل على ماء الحياة. يفعل ذلك خشية أن تصيبه اللعنة بانتقالها من امرأته إن هو لم يُرضِ جشع الشيطان المتلبس جسدها. وكان «بوغيز» قد استمرّ بإعطاء الناس بصاقه طوال النهار حتى جفَّ ريقه وضاق نفسه، فدلع لسانه وأوشك على الموت.

حينما رأى الشيخ «غالي» ذلك المشهد تيقن من أنها لعنة، اعتبر أن ما تفوه به في الجامع حكمة لا تقلّ عما كان يتمتع به السلف الصالح. بينما هو يتجول في السوق المربع رأى جماعة يتدافعون فيما بينهم حول فتى أسود يبيع الذباب، أحكم لثامه، اندسّ بينهم، وبينما هو يحاول الحصول على حفنة من ذلك الذباب، نُزع عنه لثامه، تكشّف وجهه، فسحب نفسه بهدوء قبل أن يهرب متخفياً في الأزقة بمحاذاة الجدران حتى بلغ داره بشقّ الأنفس.

في طريقه إلى البيت، سمع الشيخ المارة يرددون اسمه، ربما رآه أحدهم وهو يتدافع من أجل حفنة من الذباب، فشاع أمره بين الناس، أختبئ في حجرته، أحسّ بوجع شديد في بطنه، وبحاجته الماسة المرحاض، خصوصاً بعد أن أخبرته امرأته أن لفيفاً من أبناء المحلة ترددوا على البيت أكثر من مرة.

أرادت المرأة أن تقول شيئاً، في الوقت الذي راح يطرق فيه أحدهم الباب بعنف، لّما فتحه الشيخ رأى عنده حشداً من الأهالي، طلبوا منه

اصطحابهم إلى مكان ما، عاد إلى الداخل، استبدل ثيابه، اقتيد بعدها إلى ضفة النهر، حيث رأى هناك صفّاً من الكلاب الجائعة، تهزّ أذيالها تملقاً، اللعاب يسيل من أفواهها، تودّ أن تلتهم القطع اللحمية التي لُفّت في خرق ورُميت هناك.

«ما هذا؟!...» تساءل الشيخ، لم يعد خائفاً، حتى الصفرة التي كانت بادية على وجهه انجلت مؤخراً، لتحلّ مكانها ملامح أكثر قسوة من ذي قبل.

«مثل ما ترى أيها الشيخ...» أجابه أحد الوجهاء: «أجنّة..!»

شيء ما بدأ يغلي في قرارة الشيخ «غالي عبد ربه» بدا ذلك من نبرته وهو يطلب من الأهالي أن يتبعونه إلى الجامع.

في هذه الأثناء أخذ «بوغيز» الزنجي على عاتقه دفن الأجنة غير المكتملة بدلاً من رميها للكلاب. بينما هو يفعل ذلك، كان الأهالي يستمعون إلى موعظة الشيخ «غالي» الذي ارتقى المنبر وراح يخاطبهم بلهجة غاضبة لا تخلو من الشتائم:

«تعساً لكم يا أهل الكرخانة!... أما كفاكم عاراً أنكم لا زلتم عاجزين عن الثأر لولي نعمتكم، حتى سارعتم إلى النوم مع النساء الممسوسات.. حتى حبلنَ!.. ألا.. أن كل من أتى امرأته فهو زانٍ.. لا تحل لكم نسائكم حتى توفوا بنذركم، أو يأتي أحدكم برأس القاتل!»

بعد تلك الخطبة المبتسرة انصرف الشيخ إلى داره حانقاً مرتاباً، يشكّ في أمر راح يشغله طول الوقت، تبعه وجهاء المحلة ونفرٌ من السكّان، في حين انصرف البقية إلى بيوتهم وكلّ يسأل صاحبه: «هل فعلتها؟!»

مضى على حادثة الأجنة غير المكتملة ثلاثون يوماً ومحلة الكرخانة خالية إلا من الرجال والأولاد الصغار، فيما اختفت النساء على نحوٍ أثار الريبة في نفس الشيخ، حتى أن الرجل إذا ما رأى امرأة في الشارع يقول مندهشاً: «لقد رأيت امرأة!!»

(7)

استمر الحال على ما هو عليه ثلاثة أشهر. ليس ثمة امرأة يمكن أن تُرى في شارعٍ أو سوق عدا «فهيمة» الجدة، هي قابلة عجوز تكاد روحها أن تُزهقَ من كثرة التردد على بيوت المحلة في الآونة الأخيرة، ما أن تخرج من بيت حتى تدخل الذي بجواره، إلى أن جاء اليوم الذي أحسّ فيه الشيخ «غالي عبد ربه» أن هناك أمر ليس على ما يرام.

في أحد الأيام عندما دعا الأهالي إلى صلاة العشاء، بدلاً من التزاحم على دار «فهيمة» الجدة، فوجئ برفضهم دعوته، عنّفوه بقولهم أنه لا يصلح لأمور النساء، في النهاية لعلّ «فهيمة» الجدة تفعل ما عجز هو عن الإتيان به، عندما اكتفى بإطعام نسائهم القمل وجلود الأفاعي، وحلل لهنَّ الدم ولحم الخنزير حتى أوشكن على الموت، دون أن يساهم ذلك في شفائهنَّ أو طرد الشياطين المتلبسة أجسادهنَّ.

ما أن سمع الشيخ حديث الأهالي في ذلك اليوم حتى أحسّ أنه يتضاءل، أو يكاد أن يخرج عن كونه شخصاً مُهاباً ومحترماً في الوقت نفسه، بدأ يفكر بطريقة يستعيد خلالها مكانته بين الناس، بينما لاتزال «فهيمة» الجدة العالمة بخبايا النساء تتردد على بيوت المحلة بشكل مستمرّ، إلى أن حضي بها الشيخ ذات يوم بعد صلاة الفجر.

«ماذا تفعلين أيتها الجدة البارعة؟»

قال الشيخ حين أمسك بها عند أحد أركان الجامع، عائدة إلى دارها، وقد علم أنها مزدحمة هذه الأيام، ما أن تخرج من بيت حتى تدخل غيره، تفعل ذلك طوال الليل، كأنها بعملها هذا قد جمعت أسرار أهل الكرخانة بأسرها:

«ما الذي يحدث أيتها الجدة الطيبة... ها؟!»

«أمور نساء يا شيخ.. البيوت أسرار، أنت تعرف ذلك.. هل تريدني أن أحدثك عن الحيض والتقرح والسيلان والناسور والباسور و.....»

«صه!...» الشيخ متلفتاً واضعاً أصبعه على فمه، يريد إسكاتها: «تعساً لكِ من امرأة!»

ثم طردها وراح يسير مسرعاً باتجاه الجامع كي لا يراه أحد.

مازال الأهالي خصوصاً الرجال يترددون على دار «فهيمة» القابلة

في كل ليلة، كان من بينهم رجل عادة ما يضيّق اللثام على وجهه، في كل مرة يوشك فيها أن يطرق الباب يتردد، يقف هناك برهة من الزمن، قبل أن يقرر العودة إلى بيته دون أن يحصل على مبتغاه.

ذات ليلة طرق الباب، رأى من خلل فتحة فيه امرأة بدا وجهها مخيفاً في ضوء الفانوس الذي تحمله، فتحت الباب، سألته عن حاجته، ولما لم يبدر منه سوى الصمت أرادت «فهيمة» الجدة أن تغلق الباب وتعود إلى فراشها، لكنه أوقفها متوسلاً، راح ينظر إلى عينيها الشائختين اللتين تشيان برغبة وشيكة تحرضها على الصراخ:

«لص....!» قالت.

«لست لصاً..» أجاب الرجل الملثم يريد طمأنتها: «امرأتي تحتضر.. هلا أتيتِ معي... أرجوك أيتها الجدة الطيبة!»

«من أنت؟» قال الجدة وقد انحسر خوفها دون أن تمحو من رأسها فكرة أن هذا الرجل جاء لكي يسرقها، ربما يستدرجها لكي تخرج معه فيقتلها، ويلقي جثتها في مكانٍ ما، قرب البئر أو على ضفة النهر.

«ليس مهماً أن تعرفيني»

«لن أخرج معك ما لم أعرف من أنت»

«هكذا إذن...» قال الرجل، ثم أزال لثامه، بان وجهه للجدة التي وضعت يدها على فمها لتكتم شهقة أطلقتها:

«أنت أيضاً!...» قالت الجدة مواسية.

«ماذا تقصدين؟» سألها الرجل فأجابت نافية: «لا شيء.. ترى ماذا حدث لامرأتك؟»

«أمور النساء...» قال الزائر الغريب: «هل تأتين معي؟»

«نعم...» الجدة مؤكدة: «لا تخف»

بعد فترة وجيزة خرجت «فهيمة» الجدة حاملة بقشتها، راحت تسير مع الرجل في الطريق الموحلة، وهما يتحاوران بصوت خفيض لكنه مسموع إذ راح يتردد صداه بين جدران الأزقة:

«لا أصدق أن هذا حدث لك أيضاً!» قال الجدة وهي تقفز غمرة من المياه: «ترى ماذا يحدث في هذه المحلة؟!»

«لعنة...» قال الرجل بصوت باكٍ: «لعنة نزلت على رؤوسنا أيتها الجدة!»

بعد أن دخل الاثنان إلى دار في أحد الأزقة، امتلأت المحلة بالرجال الملثمين، كانوا يخبئون الخناجر تحت ثيابهم، كلما صادف أحدهم الآخر يسأله: «هل رأيت الجدّة..؟»

كان الجميع يبحث عن القابلة «فهيمة» التي أتمت مهمتها وخرجت برفقة صاحب الدار الذي آثر اصطحابها لكي يؤنسها، يطرد عنها وحشة الطريق الذي سلكاه وهما يتحاوران بودّ حتى

وصلا إلى محل سكناها على بعد شارعين.

«أيّ لعنة هذه يا ربّ؟» قالت الجدّة وهي تهمّ بالدخول.

«لا عليك أيتها الجدة الطيبة...» قال الرجل مهوناً عليها وقد ضيق اللثام على وجهه، ثمة شيء خلفه راح يملع كالنصل في ضوء القمر، انتظر حتى دخلت إلى البيت ثم دخل وراءها وأغلق الباب.

في تلك الليلة عاد الشيخ «غالي» إلى داره منهكاً، اغتسل، ارتدى جلبابه وراح يصلي الفجر، ما زال يفعل ذلك حتى غلبه النعاس في ساعات الصباح الأولى. لم يستيقظ إلا في ضحى اليوم نفسه، كان فزعاً من ترديد اسمه على ألسنة الأهالي الذين تجمعوا أمام داره بين غاضب ومستغيث. كان ينصت خائفاً إلى لغطهم من وراء الباب، لكنه لم يفهم شيئاً عدا الشتائم التي كانوا يكيلونها للزنج، وتهديدهم بحرق محلة العبيد، وقتها شعر بالطمأنينة وعزم أمره على الخروج ومعرفة ما حدث وكان السبب وراء إزعاجهم له.

لكنه وقبل أن يخرج ألقى نظرة على زوجته الممددة على سريرها، منهكة القوى، تنظر إلى السقف المقوس بغية الهرب من تلكما العينين اللتين بدتا في أوج قسوتها وهما تشزرانها على نحوٍ فيه من الكره الشيء الكثير.

بعد دقائق كان الشيخ يقف مع الأهالي أمام الجامع، ينظر متعجباً بعينين مسعورتين إلى أربعة من الأطفال الرضع ببشرة سوداء، يلوحون

بأيدهم كما لو كانوا يناغون بعضهم، فيما راح أحدهم يعضعض بلثتيه أصابع قدميه الصغيرتين.

في تلك اللحظة كان الشيخ «غالي» يلعن أحداً ما في سرّه، بينما يلعن البقية من أهل المحلة الزنوج، حتى صاح بهم الشيخ غاضباً:

«أزيحوا هذه الزبالة عن جامعي!!»

كان «بوغيز» في مثل هذا الوقت من النهار يحمل قربته ويزود بيوت المحلّة بالماء، حينما تناهى إلى سمعه صراخ الرضع، ترك عمله، راح يعدو بسرعة هائلة تعجب منها الأهالي، إذ خطف من أمام الجامع، حيث كان يقف الشيخ «غالي» فتساءل أحدهم:

«هل هو بوغيز؟!» قال مندهشاً، وشتمه آخر بقوله: «الكلب... كم هو سريع؟!!»

لم تكن سرعة «بوغيز» هي التي تشغل الشيخ «غالي عبد ربه» في تلك الاثناء، ثمة أمر ما، طالما شغل تفكيره منذ الليلة الفائتة، إلا أن شيئاً من ذلك لم يمنعه من أن يسخط على الزنوج، يلعنهم، وما زال يفعل ذلك حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: «فهيمة...»

فصاح الشيخ مصعوقاً: «من الذي قتلها؟!!»

تلاشى عن مخيلته شبح «بوغيز» وهو يقفز من سرير إلى آخر، واللعاب يسيل من طرفي فمه الكبير، حتى وصل إلى النهر، ألقى

نفسه في المياه الخضراء، راح يغطس إلى القاع كل حين، يخرج وفي يديه قبضتين من الطمي يلطخ بها رأسه المليء بالقواقع والطحالب والحلزون، يطلق خواره المعتاد، يتخيّل طيوراً بأجنحة سود تخفق بمرح، تشقّ مياه النهر قبل أن تصعد إلى السماء.

في الوقت الذي قرر فيه الأهالي الهجوم على محلة العبيد انتقاماً لما فعلوه برميهم لقطائهم أمام الجامع، كان الشيخ «غالي عبد ربه» في أحد المقاهي، بصحبة الضابط المكلّف بالتحقيق في مقتل «فهيمة» الجدة التي مُزّق جسدها بعد تلقيه عشرات الطعنات بواسطة آلات حادة ومختلفة توزعت ما بين سيف وخنجر وسكين، بدءاً من رأسها، إلى بطنها ووسطها ثم إلى فخذيها، وصولاً إلى قدميها.

في النهاية أُغلق التحقيق، واعتبرت السلطات أن ما حدث في تلك الليلة ينضوي تحت مسمى حوادث الشرف، بدلالة أن الجندرمة عثروا على طفلٍ أسود حديث الولادة في دار القابلة.

هكذا انتهى الأمر، على العكس مما فكر به الشيخ «غالي» الذي وزع أفكاره على أكثر من جهة، كان أحدها أن هذا الطفل الأسود كان بمعية «فهيمة» الجدة، على اعتبار أنها قابلة، وربما ولّدت إحداهنَّ في الخفاء، إذ يمكن أن يحدث ذلك في محلة العبيد، حيث يقيم الزنوج، فاحتفظت هي بذلك اللقيط كجزء من الاتفاق، ريثما تحين الفرصة في التخلص منه، وذلك بإلقائه أمام الجامع، كما سبق أن فعلت ذلك عندما وجدوا عددا من اللقطاء الملونين هناك.

بالرغم من ذلك، وتعالي صيحات التنديد بـ«فهيمة» الجدة، والمطالبة بحرق جثتها، كونها دخلت أحد الاحتمالين: إما أنها زنت وحملت من زنجيّ ما من محلة العبيد، أو أن غيرها فعلت ذلك، وتكرر الأمر مع أخريات، فكان دورها مقتصراً على التوليد والتخلص من الأجنة والأطفال غير الشرعيين، وإلقائهم في المحلة، وتحديداً أمام الجامع. في كلا الحالتين، استوجب على أهل الكرخانة محاربة الزنوج. متبنين بذلك الاحتمال الثاني، ومبعدين الأول لاحتوائه على العار.

بينما هم في لغط وجدال، قبل ساعة من إحراق جثة القابلة والهجوم على محلة العبيد، فاجئهم الشيخ «غالي» بقوله أنه اكتشف قاتل «عزت رفقي باشا» حينذاك، تقافزت الصور ومشاهد المضاجعة بشتى أوضاعها الجنسية المثيرة إلى أذهان الرجال المجتمعين أمام الجامع. فما أن أذاع الشيخ خبر اكتشافه القاتل، حتى تفرّعت نبتة الشهوة في نفوسهم، اخضرّت، صارت تعطي ثمارها: شفاه، نهود، عانات أنثوية حليقة وأخرى مشعرة.

في الأيام الأخيرة ودّ كل واحدٍ منهم الاعتراف بأنه هو قاتل «عزت رفقي باشا» لكي يتسنى له النوم مع امرأته للمرة الأخيرة، يتناول وجبة غداء دسمة، ليذهب بعدها إلى المشنقة، أوشك بعضهم على التفوّه بذلك، لولا أن الشيخ «غالي» دعاهم إلى الصلاة في ذلك اليوم. البعض صلّى خلفه دون أن يتوضأ، فيما راح البعض الآخر يلحّ عليه كي يعلن على الملأ من هو قاتل عزت رفقي باشا.

قال أخيراً:

«أنه بوغيز العبد..!»

ما أن سمع الأهالي ذلك حتى بدت الدهشة في أعينهم وعلى وجوههم، نفرٌ منهم أخذ يحكّ رأسه، يبرطم مستغرباً متسائلاً عما إذا كان هناك دافعاً حقيقياً جعل من شخص أبله مثل «بوغيز» يستلّ خنجراً ويغرزه في رقبة عزت رفقي باشا. ولّما تنبأ الشيخ «غالي» بأن أحدهم سينبري سائلاً إياه عن ذلك الدافع، صاح من أعلى المنبر:

من قال أنه أبله!.. لقد فعل ذلك انتقاماً لعائلته التي أخصى رجالها «عزت رفقي باشا»

ما أن أتمّ الشيخ كلامه حتى ضجّت محلّة الكرخانة بصيحات فرسانها، الذين أخذوا يلطمون على أفخاذهم، يبصقون بأكفهم ويلطمون بها جباههم، وهم يلعنون بوغيز السقّاء، في حين ما زال الشيخ «غالي» يحرضهم على الانتقام منه، حتى استُلت الخناجر من أغمادها، ارتفعت الفؤوس، شُحذت السيوف، وراح الجميع يبحث عن بوغيز الزنجي في كل زاوية ومكان، حتى وجدوه جالساً على ضفة النهر يخيط سرواله.

لم يكن من السهل القبض على بوغيز الذي أصبح كالثور الهائج، محاطاً بالسيوف والخناجر من كل ناحية ومكان. هو لم يفعل شيئاً، هذا ما أراد قوله دون أن يتمكن من التفوه بكلمة واحدة، هجموا

عليه بالحجارة والخناجر الحادة، أثخنوه بالجراح، سقط مغشياً عليه، قيدوه بالحبال، سحلوه في الطرقات، وعندما أفاق وجده نفسه تحت أقدام الشيخ غالي عبد ربه.

(8)

شنقوا «بوغيز» الزنجي، علقوه من رقبته على باب المقبرة، لم تستطع السلطات أن تكبح غضب الأهالي، سائلاً ذو حمرة شفّافة بدأ ينضح من وسطه بينما كان الحبل يشنطه من رقبته الغليظة، ظنّ الناس أن البقعة التي ظهرت على سرواله بولاً، في حين لم يشكّ شيخ المحلة أنه استمنى.

أدنى أنفه من «بوغيز» راح يشمه من وسطه، استنشق رائحة كصدأ النحاس، أخذ من ذلك السائل، وضعه على التراب، تجمع حوله النمل بكثافة، أمر بإناء فيه ماء، ألقى السائل فيه فرسب في القاع. عندئذ، راح يلعن بوغيز، أمر باقتلاع قضيبه ودسه في فمه، فعلوا ذلك، لكنهم عجزوا عن إدخال ذلك الشيء في فمه، كان كبيراً، أثار المشهد غضب الأهالي، فأمر الشيخ بتفريقهم

هكذا أعدم «بوغيز» الزنجي، ظلت جثته معلقة على باب المقبرة يوماً كاملاً، قبل أن يقوم الزنوج بإنزالها، ثم دفنها في مقبرة العبيد. عظام «عزت رفقي باشا» لُفت في كفن كبير، وشيعت إلى المقبرة في مسيرة حاشدة. النساء ارتدين الثياب المطرزة بالورود الملونة، قبل أن تحتضن كل امرأة زوجها وكلّ فتاة عشيقها في المخابئ والسراديب، حتى فاض على أفخاذهنَّ ماء الرجال وشعرن باللذة والشبع. ضربت الدفوف، أنشدت الأشعار، أقيمت الأعراس، وزعت الحلوى، ارتدى الصبية ثياب العيد، فتحت المقاهي والدكاكين، انتشرت الولائم في أرجاء المحلة، وعمت الفرحة الأهالي في كل مكان. عاد الناس لمزاولة أعمالهم، ازدهرت البساتين بزرعها، والأشجار بثمارها، غصت الأسواق بالبضائع المختلفة، شبع الرجال من نسائهم، والنساء من أزواجهنَّ، حتى امتلأت الأرحام، وحبلن في بطونهنَّ الأجنة: توائم وأفراد.

أعوام من الخصب والنماء مرّت على محلة الكرخانة، جيء بدلاً من بوغيز الزنجي بثلاثة سقاءين يعملون بأجرة، اختيروا من قبل الشيخ «غالي عبد ربه» الذي حرص على ألا يكونوا ضخاماً أو يتدلى من وسط كل واحدٍ منهم عضو تناسلي كبير. تزوجت «نظلة» من أحد الصيارفة وسافرت معه إلى اسطنبول، دون أن تأخذ من تركة زوجها شيئاً عدا بعض المصوغات الذهبية، في حين ازدهرت تكية الشيخ «غالي» الذي صار كثير الترحال، يتردد ما بين البصرة والحجاز وباقي المدن الجنوبية.

طيلة تلك السنوات، أصبح اسم بوغيز الزنجي، بالرغم من موته، يتردد على كل لسان في محلة الكرخانة. صارت الأم تُخوِّفُ ابنها قائلة له: «نم... وإلا رميتك في القن، فيأكلك الزنجيُّ!» وتقول أخرى مخاطبة ابنتها: «إن لم تأكلي الآن، ألقيكِ للزنجيِّ في السرداب!» فتأكل المسكينة وهي تنظر إلى السرداب بعينين خائفتين، حتى صار الأولاد لا يخالفون أمراً لذويهم، يفعلون ذلك حتف أنوفهم: يجلبون الماء، ويرمون الأوساخ، ويذهبون إلى «الكُتّاب» ولا يتشاجرون أو يبدي أحدهم وقاحةً، بل يبدو مهذّباً في أكثر الأحيان، وغير مشاكس، لا يوسخ ثيابه أو يصطاد الزنابير أثناء الظهيرة.

يفعل ذلك خشية أن يأكله الزنجي الذي بات يقضّ مضاجع الأولاد الصغار في المحلة كلما أبدى أحدهم عناده في أثناء الأكل أو النوم، فلا يترددن الأمهات بقولهنّ: «سيأكلك الزنجيُّ!» ثم لا تكفّ إحداهنّ، إنما تتابع تهديدها، وهي تشير بإصبعها نحو سرداب مظلم أو قنٍّ للدجاج، أو اسطبل، أو زريبة للحيوانات، أو مربط للحمير، وغيرها من الأماكن المهملة أو تلك المعزولة المخصصة لأغراض الخزن والمئونة.

ذات يوم، كان الشيخ «غالي» يلقّن أولاد المحلة دروسه في «الكتّاب» تشاجر صبيان في باحة الجامع، ففضَّ الشيخ بعصاه الشجار، ثم سألهما عن السبب الذي جعلهما ينتفان أحدهما شعر الآخر على هذا النحو العنيف. قال الأول أن الزنجي في الذي في بيتهم أقوى

من الزنجي الآخر في دار رفيقه الذي أصرّ على أن الزنجي في دارهم عملاقاً وطويلاً ذو عضلات مفتولة، وهو أقوى منه بكثير. كذلك بقية الأولاد في «الكتّاب» كان كل واحدٍ منهم يدعي بأن الزنجي في زريبتهم أقوى بأساً من الزنجي في قنّ صاحبه.

في ذلك اليوم تورّمت أقدام الأولاد الصغار على كثرة ما تلقته من الضرب المبرح، على يد الشيخ «غالي» الذي ما زال يضرب ويضرب حتى جاء دور ابن ولده البكر الذي انكسرت على قدميه عصا الخيزران، ذلك أنه تحدّى صبية المحلة، بصوت عالٍ، زاعماً أن الزنجيّ في سرداب بيتهم أقوى من الجميع!

ما زال الناس في محلة الكرخانة يعيشون في ترف وسلام حتى جاء اليوم الذي أُشيع فيه أن شبح «بوغيز» الزنجي يطوف في أرجاء المحلّة، ويملأ بيوتها بالفساء انتقاماً لما فعلوه، عندما تم شنقه وصلبه على باب المقبرة.

يوماً بعد يوم، كانت المحلة تزداد نتناً، خصوصاً أيام «الشرجي» الصيفية، حيث الحرّ الشديد والرطوبة العالية، فلا يبق دار في المحلّة بما فيها بيت الشيخ «غالي» إلا ويخرج أهلها إلى البساتين والساحات، هرباً من تلك الرائحة الكريهة. من هناك يسمعون صوت «بوغيز» الزنجي يرتفع عالياً، تضجّ به بيوت المحلّة، تارة كنباح كلب، ونهيق حمار تارة أخرى، وأحياناً صعيق ديكة أو قأقأة دجاج أو صهيل حصان.

في الصباح، يعود الأهالي إلى مخادعهم، الأمر الذي أثار انتباه سكان المحلات المجاورة، إذ صاروا يسمعون تلك الأصوات، فلا يشكّ أحدهم أن مصدرها هو «بوغيز» الذي ما زالت رائحته هناك، وخواره المنبعث من كل زاوية وبيت من بيوت الأهالي الذين يظنون أن روحه الغاضبة ما زالت تسكنها، وتشتت ساكنيها إلى العراء.

ذلك ما تناهى إلى أذني الشيخ «غالي» عند عودته من الحجاز. في الجامع، حيث تجمع حوله الأهالي مذعورين، أحسّ أن هناك من صار يشعر بالندم لأنه اشترك في قتل بوغيز السقّاء. لكنه حتى تلك اللحظة لم يكن يصدق أحاديث الأهالي عن تلك الروح الغاضبة، وما أن حلّ الليل حتى شوهد مع أفراد عائلته وهم ينزحون هرباً من هياج الزنجي وريحه الكريهة.

لم تنفع الأدعية والأحراز التي قرأها الشيخ «غالي» في الوقت الذي ازداد فيه ظنّ الناس من أن لعنة بوغيز الزنجي قد حلّت فعلاً، وستفتك بهم في النهاية ما لم تنج مساعي شيخ المحلة بطردها.

أثناء ذلك، خطرت لـ«ربيع القماش» فكرة، عندما راح ينصح الأهالي بتقديم القرابين، علّها تهدّأ من هيجان الزنجي الذي صُلب على باب المقبرة، فيتخلصون من خواره وريحه المزعجة. بالتالي، ثمة من أعجبته الفكرة، في حين عاب البعض الآخر على «القماش» تفكيره بتلك الطريقة، خصوصاً الشيخ «غالي» الذي لم يزل يعدهم بإيجاد طريقة مناسبة تخلصهم من تلك اللعنة.

في تلك الأثناء، كانت زوجة القماش تتردد على السوق يوميا، تشتري كميات كبيرة من الأطعمة والخضار، ولما رآها الشيخ «غالي» وهي تفعل ذلك، ظنَّ أن زوجها يعدّ لوليمة كبيرة، مما دفع امرأته لاستئجار الحمالين بغية نقل المئونة إلى بيتها، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث.

لم تترك زوجة «ربيع القماش» نوعاً من الأطعمة إلا طهته، حتى جاء اليوم الذي أحسنت فيه صنيعها، فبينما كان يبيت أهل المحلّة سواد لياليهم في البساتين والساحات والخانات في أوقات «الشرجي» الرطبة، كان «ربيع القماش» وعائلته يقضون وقتهم في البيت، دون أن يثير خوار «بوغيز» الزنجي الرعب في نفوسهم، أو يشعروا بالضيق من رائحته. عندئذ.. لطم الشيخ جبينه متذكراً شراهة «بوغيز» الزنجي وحبه للأكل، خصوصاً الباذنجان المحشو بالخضار والرز واللحم والكشمش.

فعل الشيخ «غالي» الشيء نفسه، راح يواظبّ على تقديم القرابين بين فترة وأخرى، فكلما اهتاجت روح الزنجي وعلا خواره وتفشى فساءه قذف في السرداب باذنجانة محشوة. وكانت المحصلة هي أن كفّت عائلة الشيخ عن نزوحها من البيت عدا ليالي «الشرجي» التي لا ينفع معها شيء، بما في ذلك الباذنجان المحشي.

كذلك الأهالي، أخذوا يقتفون أثر الباذنجان أينما وجد، فضلاً عن اللحم والرزّ و«الكشمش»، حتى بلغ الأمر حداً بات من

الصعب على المرء في محلة الكرخانة الحصول على مكونات هذه الأكلة الشهيرة. مما اضطر السكان إلى اختراع أكلات أخرى، دون أن يُعطى الفقراء والمتسولين شيئاً منها، إنما تُرمى في الزرائب والأقبية والأقنان والسراديب والحجر المظلمة، ثم لا يخرج منها سوى الفضلات التي ملأت المزابل، وغصّت بها ضفة النهر، حتى صار يشكو من روائحها سكان المحلات المجاورة.

أكثر ما أزعج الشيخ في حينها، أن الأهالي في المحلّة انهمكوا في تقديم القرابين لبوغيز الزنجي، الأمر الذي ما زال يوصيهم به، ما دام أن هناك خوار ورائحة تنبعث من الزرائب والسراديب المظلمة. يفعلون ذلك دون أن يلتفت أحدهم إليه أو يبدي احترامه له كما كان عليه الحال من قبل. أحسّ أن روح بوغيز الزنجي تطارده، تسرق منه الأضواء والوجاهة شيئاً فشيئاً، إلى درجة وصلت بالبعض إلى الكفاف عن دفع أموال الزكاة والتبرعات.

التجار والميسورين من أهل الكرخانة تبرعوا ببناء ضريح لبوغيز الزنجي في مقبرة العبيد. لم يمض الكثير من الوقت حتى أخذ الناس يحجون إليه، خصوصاً النساء اللاتي رحن يلبين النذور وينحرن على بابه الذبائح التي امتلأت من لحومها بيوت الغجر والعبيد، فيما تخلو دار الشيخ «غالي» من أيّ شيء عدا الخوار ورائحة الفساء.

بمرور الزمن كانت بوادر النعمة تظهر على الأهالي في محلة الكرخانة: عاد الأسرى إلى ديارهم، شُفي الأولاد المعتوهين، برئ

العميان، فيما حبلن النساء العاقرات ووضعن كما تفعل القطط، وتبْن العاهرات وهن يبكين على باب الضريح ويطلبن الغفران.

لم يصدق الشيخ «غالي عبد ربه» أن كل ذلك يجري ببركة «بوغيز» ذلك الزنجي العفن كما يسميه دائماً، حمل فأسه وراح يركض باتجاه الضريح لكي يهدمه. وجد هناك مجموعة من الأهالي، تحلقوا حول حجرة القبر المطلية جدرانها بالأخضر، يحملون الآلات الجارحة، يتوعدونه بالقتل إذا ما تقدم خطوة واحدة نحو الضريح.

إلى هذا الحدّ توقف الشيخ «غالي» لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة، مخافة أن يُشجَّ رأسه أو يطعنه أحدهم بخنجره. عاد إلى البيت منكسراً شاعراً بالخيبة، اعتكف هناك فترة طويلة، ظنّ الناس أنه مات أو ربما جُنّ، لكنه في يوم كان فيه الناس يؤمون ضريح بوغيز الزنجي، ظهر فجأة راكباً حماره، رأى هناك الهدايا والنذور التي كانت تملأ بيته في الأعياد والمناسبات، ها هي الآن تُرمى في الحجرة التي طوّقت قبر بوغيز السقّاء، أحسّ بالمرارة وهو يرى مريديه يشيحون بوجوههم عنه، في حين يبجل الأهالي بوغيز إلى درجة أن بعضهم صار يسمي مولوده بوغيز والفتاة بوغيزة.

لم يستطع الشيخ «غالي» أن يتمالك نفسه، كالمجنون راح يتنقل بين الأزقة، يقرع الأبواب، ينذر الأهالي، يحذرهم من لعنة ستحلّ عليهم إن لم يكفّوا عن الحجّ الى قبر «بوغيز» الزنجي. لكنّ الناس في المحلة سخروا منه، تهكموا عليه، ضاقوا ذرعاً بما صار يتفوه به

من حكم ومواعظ لم تجد نفعاً في ظلّ المعجزات التي كان يفعلها «بوغيز» الزنجي من داخل قبره.

اعتبروا أن ما صار يتفوّه به تطرفاً جاء نتيجة عجزه عن الوقوف حائلاً دون إيجاده حلاً مناسباً لما صار يتفاقم يوماً بعد يوم، وهو خوار بوغيز ورائحته التي لا تطاق، خصوصاً أيام الصيف. فضلاً عن ذلك صار الشيخ «غالي» في نظر الأهالي هو الملام، كونه أمر بقتل بوغيز السقّاء دون أن يعطي دليلاً واحداً يفضي إلى اتهامه بقتل «عزت رفقي باشا» وها هو الآن يجني خياره إلى فيه، يعيش في عزلته، مع نفر من مريديه الذين بدئوا ينفرطون من حوله، حتى غدا وحيداً، شائخاً، يقلب صفحات كتب الإفتاء التي ورثها من أبيه وجده، وفي كل يوم يفعل ذلك، يخرج إلى الأهالي بفتوى جديدة تحرم عليهم اللواذ بقبر بوغيز الزنجي.

إلا أن أحداً في محلة الكرخانة لا يأبه بما يقوله، إنما صار هناك من يردّ عليه بالشتائم، وأحياناً بالأيدي، خصوصاً عندما يكون على مقربة من ضريح بوغيز الذي طُليت جدرانه بالأخضر. هناك، حيث يبدو أكثر تشدداً، وهو يرى النساء يلطخن الضريح بالحناء، ويبخرن الحجرة، ويندبن طوال النهار.

كان الشيخ «غالي عبد ربه» يخرج بعد صلاة العشاء، حاملاً مسبحته وآلاته الحادة، يدعو الناس إلى حلقات الذكر في ليالي الجمع من كل أسبوع، إلا أن أحداً لا يأتي إلى هناك، عدا المشردين والمتسولين،

يجتمعون حوله، ولّما كان الأمر يزداد سوءاً في كل يوم، باختفاء أتباعه الذين لا يجد منهم أحداً ليغرز في جسده تلك الآلات الحادة، فكّر في أن يجرّب ذلك بنفسه، فكاد أن يموت عندما جرح رأسه بسكين وسال منه الدم بغزارة. عندئذ، أغمي إليه وحمله المتسولين إلى البيت.

مرت أيام، لم يسمع فيها الناس في محلة الكرخانة صوت الشيخ «غالي» وهو يؤذن لصلاة الفجر. غادر فجأة. شوهد وهو يسلك «الدرب الطويل» باتجاه الصحراء، وقيل أنه ذهب إلى هناك للتعبّد والدعاء على أهل المحلة بالهلاك، فيما قال بعضهم أن أعيان المحلة أرسلوا وراءه من يقتله، أو أنه قُتل على أيد اللصوص وقطاع الطرق. إلا أن الخبر الذي تلقاه ذويه هو أنه افتُرس من قبل وحوش البرّ، ودفن الحجيج رفاته في مكان ما من جبل سنام.

(9)

لم يمض على مغادرة الشيخ «غالي عبد ربه» محلة الكرخانة سوى ثمانية أشهر، حتى أجدبت الأرض، جفت الأنهار،عم الغلاء، انتشرت المجاعة في عموم المدينة. كانت الكرخانة أكثر مناطق البصرة تأثراً بتلك الموجة العنيفة، أخذ الناس يتكلمون عن هيجان روح «بوغيز» الزنجي ثانية بعد أن عادت أجواء المحلة تعبق برائحة الفساء على نحو لا يُطاق، في حين كان الخوار يزداد حدة، وهو ينبعث من الأقنان والزرائب والاسطبلات والسراديب المظلمة.

في ظل المجاعة التي ضربت المدينة، وقف الأهالي عاجزين عن تلبية رغبات السيد «بوغيز» الذي كان خواره وفساءه يزدادان يوماً إثر يوم حتى أُشيع أن «بوغيز» نفسه خرج من قبره وراح يتجول ليلاً في الأزقة وقريباً من النهر، يبحث في المزابل عن بقايا الباذنجان المحشي.

لم يقتصر الأمر على «بوغيز» واحد، إنما كان هناك ثلاثة أو أربعة شوهدوا في المحلة وهم يفتشون عن الطعام. لم يبق حيوان داجن ولا قطّ ولا حمار ولا كلب إلا ذبحه الأهالي، ورموه إلى الأشباح الهائجة في الخارج. مع مرور الوقت، في ليلة ظلماء من ليالي الصيف القائظة، حيث الدبق والرطوبة ورائحة الهواء المتعفّن والجوع الشديد، كثرت أشباح «بوغيز» الزنجي في المحلة، ظنَّ الأهالي أن روحه انشطرت إلى عشرات الأشباح التي راحت تقفز كالغوريلات من فوق أسطح البيوت وعبر الأسيجة، خرج من كل بيت زنجي أسود غاضب جائع على شاكلة «بوغيز» السقاء، حتى امتلأت محلة الكرخانة بقطيع من العمالقة السود الجياع. عندئذ، لم يشك أحد من الأهالي أن ما حصل لهم كان النتيجة المؤلمة لدعاء الشيخ «غالي» عليهم بالهلاك، أحسّوا بالندم وتمنى كل من لم يزل على قيد الحياة أن يعود شيخهم في تلك الساعة لينتشلهم من فتك العمالقة السود العراة.

في تلك الأثناء، وصل إلى المحلة قادماً من الصحراء شيخ عجوز، يخبئ وجهه خلف لحية بيضاء طويلة، يرتدي ثياباً رثة، يتكئ على عصا خيزران، يبدو من هيئته أنه الشيخ «غالي عبد ربه» الذي وقف أمام داره برهة من الوقت، ينظر إلى أحد أولئك الزنوج يحطم بابه الخشبي الكبير، يثب كالوحش إلى الشارع، وقد دلع لسانه من شدة الجوع، وراح يقترب من الشيخ ويشمّه محاولاً جذبه إليه.

أحس الشيخ أنه سيُفترس، رجع خطوتان إلى الوراء، اصطدم

بكتلة صلبة من اللحم اللزج الذي تنبعث منها الروائح الكريهة. عندما نظر حوله رأى مجموعة من العمالقة الزنوج، يشبه أحدهم الآخر، خلاسيون، عراة، تتدلى منهم أيور ضخمة طويلة، لكنها باهتة ومتهدلة.

بعد دقائق، لم يبق من الشيخ «غالي عبد ربه» سوى أسماله وعظامه، في حين حوصر الأهالي في بيوتهم التي خلت من الطعام، عدا الجرذان والفئران والصراصير. في الوقت الذي ما زال فيه «بوغيز» والعشرات منه يأكلون ما يُرمي إليهم من جثث الموتى.

ضياء وفي عايش الجبيلي.

- تولد العراق، البصرة، 1977

- روائي، صدر له:

1. **لعنة ماركيز** (رواية) حازت على جائزة دبي الثقافية 2007، إصدارات الاتحاد العام لأدباء وكتاب البصرة.

2. **وجه فنسنت القبيح** (رواية قصيرة) بالاشتراك مع الروائي علي عباس خفيف، من نتاج ورشة الرواية القصيرة / المشغل السردي في البصرة – 2009.

لا أفهم الجدوى من رغبتي الغامضة والملحّة في إعادة كتابة المخطوطة بلغة معاصرة. ربما هي رغبة حقاً أو نداء حسيّ مجهول يأتي من تلك الأقاصي الزمنية التي التفّت حولي حتى صرت أرى الجدران على ما هي عليه أواخر القرن التاسع عشر. أشمّ رائحة القهوة والتنباك والحليب الرائب. أسمع أصوات السياط وهي تضرب ظهور العبيد بينما هم يحملون الملح على أكتافهم في سباخ البصرة. أرى الجندرمة على ضفاف شطّ العرب يغسلون أجسادهم المتعبة من حمل الجثث وإحراقها بعد الطاعون. ثمة معاول تحفر في الغرف المظلمة وعلى جانبي الطرقات قبوراً للموتى. الخيل وهي تجرّ جثث الأشقياء والخونة والمجذومين إلى الشطّ. السقاؤون والباعة المتجولون والمتسولين والراقصات والعاهرات والجواري والغلمان الخلوين. قرع الطبول ونقر الدفوف. العبيد وهم يرقصون « الهيوة » و « الليوة » على أنغام الخشابة والطنابير والزيران في ليالي الخميس. ربات الخدور في العليات المعتمة. الشناشيل ورائحة الساج الهندي والجذوع النجدية والسويكة ودخان الأفيون.

بوغيز العجيب

ضياء الجبيلي

مؤسسة الدوسري للثقافة والإبداع
مملكة البحرين - ص.ب ١٨٣٦١
Website : www.aldosariculture.com Email: info@aldosariculture.com
جميع كتبنا متوفرة في سندباد alsindebad.com